أحاديث السفر
دراسة بلاغية في البيان النبوي

د. عويض بن حمود العطوي
قسم اللغة العربية ـ جامعة تبوك

ملخص البحث :

تحاول هذه الدراسة الإجابة على سؤال هو : ما أبرز ملامح البلاغية النبوية في أحاديث السفر؟ وقد كان مجال الدراسة محدداً وهو (الصحيح من أحاديث السفر) وتمت دراسة هذه الأحاديث من الوجهة البلاغية من خلال مستويات ثلاثة هي : الكلمة المفردة والتركيب والتصوير، وقد دُرست الكلمة من خلال : الصيغة، والتنكير والتعريف ، ودُرس التركيب من خلال : التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، والخبر والإنشاء ، ودرس التصوير من خلال : الجرس ، والاستعارة ، والتشبيه . وقد اتبعت الدراسة المنهج التحليلي وتوصلت إلى إبراز أهم صور البيان النبوي في أحاديث السفر، كما ظهرت بعض النتائج لعل أهمها : ظهور أثر صيغة الكلمة في بيان المعنى ، كصيغة : (الفَعَلان ، والتفعيل ، والتفعُّل). حضور الجمع في كلمات الأحاديث بما يقارب الثلث مما يوحي بالعناية بشأن الجماعة في السفر . وضوح التنوع في موقع الكلمات في صور متعددة من التقديم والتأخير في الإسناد وغيره . ظهور الإيجاز بقسميه (الحذف ، والقصر) بوضوح ، مما يدل على فضيلة الإيجاز، وتأكيد سمة (جوامع الكلم) في كلامه ﷺ. كثرة صور التوكيد مما يؤكد العناية بمضمون النص لأنه- في غالبه- وصايا وأدعية. كان النداء هو أكثر صور الإنشاء الطلبي وروداً ، وهذا يتناسب مع كثرة الدعاء في السفر، ثم يأتي بعده الأمر لمناسبته للوصايا والتوجيهات .

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن والاه أما بعد .

فقد كانت عنايتي في كل دراساتي السابقة متجهة نحو البلاغة القرآنية ، وأنعم بهذا الميدان ما أكثر عطاءه ، و ما أوسع أفقه ، وأما على المستوى البشري، فليس يخفى على أحد أن البيان النبوي هو قمة البلاغة ، لأن قائله هو رسول صلى الله عليه وسلَّم المسدد من ربه قال تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣، ٤] ، لذا كان جامعاً لمعالم البيان الرفيع كلها ، يقول الجاحظ : " لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه ، من كلامه ﷺ"(١) .

ورغم إشادات أرباب البيان العظيمة بالبلاغة النبوية الرفيعة ، إلا أن عناية الباحثين بالبيان النبوي ليست على المستوى المطلوب ، مع الاعتراف بتأثير هذا البيان الرفيع في جل العلوم العربية ، يقول د . محمد ضاري حمادي : "وإذا كان الحديث أفصح كلام ، وأسمى لغة عربية – بعد القرآن – متميزاً بعزيز المادة ، وواسع الثراء اللفظي ، فقد صار له مع لغتنا شأن جليل ، وله فيها أثر كبير ... "(٢) .

لذا فقد سعيت أن يكون لي شرف الإسهام في هذا ولو بالقليل ، وقد وقع اختياري على أحاديث السفر ، لأدرس من خلالها البيان النبوي الرفيع ، ومما

---

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون(مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٧٥م) ٢/ ٢٧.

(٢) الحديث النبوي الشريف ، وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ، د. محمد ضاري حمادي ، (مؤسسة المطبوعات العربية ، دمشق ، بيروت ، ط (١) (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢م) . ص ٧.

يعطي هذه الدراسة أهمية خاصة ما يلي :

١- أنني لم ألحظ عناية كبيرة بجمع أحاديث السفر رغم أهميتها وكثرة تعرض الناس لعوارض السفر، فلم أجد من أفرد ذلك بمؤلف خاص، إلا ما ذكر عن أبي اليمن عبد الصمد عبد الوهاب بن عساكر، في جزء له في أحاديث السفر، تحقيق : د. علي عبد الباسط مزيد حسانين، وآخر.

٢- أن أحاديث السفر منوعة، فمنها ما يصف السفر، ومنا ما يختص بأدعيته وأذكاره، ومنها ما يتصل بآدابه وأخلاقه، وهذا يدل على ثرائها بالدلالة.

٣- أن هذه الأحاديث بكل ما وصفنا لم تفرد بدراسة مستقلة من الناحية البلاغية – فيما أعلم- فأردت بهذه الدراسة خدمة السنة وبيان أهم صور البيان النبوي الرفيع، لإضافة مزيد من الدراسات التطبيقية في البلاغة النبوية، حيث مازال هذا المجال يشتكي شحا وقلة في الدراسات والمؤلفات موازنة بغيره.

ولعدم اجتماع كل هذه الأنواع من الأحاديث في موضع واحد فقد اجتهدت في جمع ما كان متعلقاً بالسفر مما له صفة الوصف أو الدعاء أو الوصية أو الأدب، ودرست كل ذلك من خلال ثلاثة مباحث هي :

المبحث الأول :. دلالة الكلمة

المطلب الأول : الصيغة.

المطلب الثاني : التنكير والتعريف.

المبحث الثاني :. دلالة التركيب.

المطلب الأول: التقديم والتأخير.

المطلب الثاني: الإيجاز والإطناب.

المطلب الثالث: الخبر والإنشاء.

المبحث الثالث :. دلالة التصوير

المطلب الأول: التصوير بالجرس.

المطلب الثاني: التصوير بالاستعارة.

المطلب الثالث: التصوير بالتشبيه.

* * *

مجال البحث (حدود الدراسة) :

تهتم هذه الدراسة بأحاديث السفر المتعلقة (بوصف السفر ، وآدابه ، وأدعيته ، ووصاياه) ، وقد اكتفيت بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلَّم ، وبالروايات الأكثر تكراراً وعناية من قبل أهل العلم[1] ، لضيق مساحة البحث عن الإحاطة بكل دقائق هذا الموضوع ، ولخروج بعض النصوص عن مجال هذه الدراسة .

وسأورد هنا النصوص التي دارت الدراسة حولها وهي كالتالي :

أولا : أدعية السفر وأذكاره :

الركوب :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا ، ثُمَّ قَالَ : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ، اللَّهمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى ، اللَّهمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا ، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ ، اللَّهمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ، اللَّهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ ، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ ، وَزَادَ فِيهِنَّ : آيِبُونَ ، تَائِبُونَ ، عَابِدُونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ؟" رَوَاهُ مُسْلِمٌ"[2].

---

(١) وقد اكتفيت بتخريج الأحاديث هنا ، وذكر نصوصها مشكلة عن تكرار ذلك في تضاعيف البحث.

(٢)صحيح مسلم ، للإمام مسلم بن الحجاج ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، (دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط بدون) ح (١٣٤٢) ، ٢ / ٩٧٨.

التوديع :

عن مجاهد قال : خرجت إلى العراق أنا ورجل معي فشيعنا عبد الله بن عمر فلما أراد أن يفارقنا قال : إنه ليس معي شيء أعطيكما ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إِذَا اسْتُودِعَ اللَّهُ شَيْئًا حِفِظَهُ ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكُمَا وَأَمَانَتَكُمَا ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكُمَا"(١).

عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا أتاه الرجل وهو يريد السفر قال له : ادْنُ حَتَّى أُوَدِّعَكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- يُوَدِّعُنَا فَيَقُولُ : "أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ "(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال ودعني رسول صلى الله عليه وسلم فقال : " أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ الَّذِى لاَ تَضِيعُ وَدَائِعُهُ"(٣).

النزول :

عن خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها تقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " منْ نزلَ منزلا ثم قال : أعوذُ بكلمات الله التامّاتِ من شرّ ما خلق ، لم يضرّه شيء حتى يرتحلَ من منزله ذلك"(٤).

---

(١)صحيح ابن حبان ، لابن حبان ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م) ، ح(٢٦٩٣) ٤١٠/٦.

(٢) المسند ، للإمام أحمد ، (مؤسسة قرطبة ، مصر ، ط بدون) ح(٤٥٢٤)، ٧/٢. ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داوود ، (مكتبة المعارف الرياض ، ط بدون ، ١٤٢١هـ ، ١٩٩٥م) ح(٢٦٠٠).

(٣) سنن ابن ماجه ، لابن ماجه ، (دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م) ح(٢٨٢٥) ٣٥٣/٤ ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ح(٢٢٧٨).

(٤)صحيح مسلم ، ح(٢٧٠٨) ٤/ ٢٠٨٠.

الرجوع :

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج إلى سفر قال : "اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِى الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الضُّبْنَةِ فِى السَّفَرِ، وَالْكَآبَةِ فِى الْمُنْقَلَبِ، اللَّهُمَّ اطْوِ لَنَا الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ"، وَإِذَا أَرَادَ الرُّجُوعَ قَالَ : "آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"، وَإِذَا دَخَلَ أَهْلَهُ قَالَ : "تَوباً تَوباً، لِرَبِّنَا أَوْباً، لاَ يُغَادِرُ عَلَيْنَا حَوباً"(1).

ثانيا : وصايا السفر :

عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد سفرا فقال يا رسول الله أوصني قال : " أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ "، فَلَمَّا وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - : " اللَّهُمَّ ازْوِ لَهُ الأَرْضَ وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ"(2)

عن ثابت عن أنس قال : جاء رجلٌ إلى رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : إني أُريدُ السفر ، فزَوِّدني ، قال : زَوَّدك اللهُ التَّقوى، قال : زِدني، قال : وغفر ذَنبَكَ، قال : زدني، - بأبي أنتَ وأُمِّي- قال : ويَسَّرَ لك الخير حيثما كنتَ "(3).

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، ح(٢٣١١)، وهو في مجمع الزوائد ومنبع الزوائد، للهيثمي (دار الكتاب العربي بيروت، ط بدون) ١٠ / ١٢٩ ، وقال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح إلا بعض أسانيد الطبراني.

(2) سنن الترمذي، للترمذي، تحقيق : بشار عواد معروف، (دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٨م) ح(٣٤٤٥) ٥/٤٤٢ ، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي : صحيح، ح(٢٧٤٣).

(3)سنن الترمذي ح (٣٤٤٤) ٥ / ٤٤١ ،وقال الترمذي : " هذا حديث حسن غريب" ، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي ح(٢٧٣٩) : "حسن صحيح".

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ ، فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ "(١) .

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- : " إِذَا سَافَرْتُمْ فِى الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِى السَّنَةِ فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ ، وَإِذَا عَرَّسْتُمْ بِاللَّيْلِ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ ، فَإِنَّهَا مَأْوَى الْهَوَامِّ بِاللَّيْلِ "(٢) .

ثالثا : آداب السفر :

حدثنا محمد بن المثنى حدثني عبد الصمد حدثنا شعبة عن سيار عن عامر عن جابر قال

: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا قام أحدُكم ليلاً ، فلا يأتيَنّ أهله طُروقاً ، حتى تَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ ، وَتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ "(٣) .

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " : إذا أطالَ أحدُكم الغيبةَ ، فلا يَطْرُق أهلَه ليلاً "(٤) .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رجلا قدم من سفر ، فقال له رسول الله ﷺ : "مَنْ صَحِبْتَ ؟ فَقَالَ : مَا صَحِبْتُ أَحَدًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ ، وَالثَّلاثَةُ رَكْبٌ "(٥) .

---

(١) المستدرك على الصحيحين ، الحاكم ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، (دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ – ١٩٩٠) ٦١٣/١ ، وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"

(٢) صحيح مسلم ح(١٩٢٦) ، ١٥٢٥/٥

(٣)صحيح مسلم ح(٧١٥) ١٥٢٧/٣ .

(٤)صحيح البخاري ، البخاري (دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م) ، ح (١٧٠٧) .

(٥)المستدرك على الصحيحين ، ح(٢٤٩٥) ، ١١٢/٢ ، وقال الحاكم " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وشاهده حديث أبي هريرة صحيح على شرط مسلم" وهو في سنن أبي داود ، ح(٢٦٠٧) ، ٣٦/٣ ، وقال الألباني : حسن.

رابعا : أوصاف السفر :

عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ" [1].

عن جابر ﷺ قال : شكا ناس إلى النبي صلى الله عليه و سلم المشي فدعا بهم فقال : "عَلَيْكُمْ بِالنَّسَلاَنِ فَنَسَلْنا فَوَجَدْنَاهُ أَخَفَّ عَلَيْنَا"[2].

* * *

(١) صحيح البخاري ح(٣٠٠١).

(٢) المستدرك على الصحيحين، ١ / ٦١٠ ، وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه".

المبحث الأول : دلالة الكلمة :

هناك بعض القضايا التي تتصل بالكلمة لذاتها، ولها أثر كبير في الكشف عن معناها، دون إهمال للسياق والموقع والعلاقات اللفظية ، ومن تلك المحددات التي وجدت لها حضورا في مجال الدراسة ما يأتي : صيغة الكلمة، تنكير الكلمة أو تعريفها.

المطلب الأول : صيغة الكلمة :

يمكن النظر لصيغة الكلمة من حيث مبناها الصوتي، (الحروف والحركات والمدود) أو ما يعرف بالصوامت والصوائت، كما يمكن اصطحاب صيغ العدد في هذا المجال: الإفراد، والتثنية، والجمع، لأنها تعد في عرف النحويين صيغا.

أولا : بنية الكلمة :

يشكل موقع الحرف وحركته بنية الكلمة، التي تنتج عنها مجموعة من الصيغ ذات الدلالة المهمة، التي لها أثرها الواضح في إبراز المعنى وتشكيله، ومن الصيغ ذات الدلالة في النص المدروس صيغة "الفعَلان" في قوله صلى الله عليه وسلم لما شكى إليه ناس تعبهم من المشي في السفر قال : " عليكم بالنَّسَلَان، قالوا فنسلنا فوجدناه أخف علينا ".

يقول ابن حجر(ت٨٥٢هـ) : " والنسلان بفتحتين : الإسراع مع تقارب الخطا وهو دون السعي "[١]، و في موطن آخر قال: "وقال ابن جبير: النسلان: الخبب السراع" [٢]، و"النسلان : مشية الذئب إذا أسرع" [٣]، ومن خلال ما سبق نستطيع

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، تعليق الشيخ / ابن باز، ترقيم / محمد فؤاد عبدالباقي، إخراج/ محب الدين الخطيب(مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ط بدون) ٥٤٣/٨.

(٢) فتح الباري ٦١٦/٨.

(٣) لسان العرب مادة نسل.

القول بأن هذه الكلمة وصف للمشي والسرعة والتقارب فيه، وبهذا تكون قد صورت بحركاتها ، وأصواتها الهامسة ، هيئة المشي الموصوف خير تصوير ، فتوالي الفتحات الخفيفة فيها ينقل لنا صورة الأقدام المتسارعة في قرب ، ومقاطع الكلمة تشكل الصورة تماماً نَ ، سَ ، لان ، حركة قصيرة ، حركة قصيرة ، ثم راحة ، والحروف الهامسة تسهم في إكمال الصورة اللطيفة لذلك النوع من المشي.

وليس هذا أمرا بدعا فقد لحه حذاق اللغة وأشادوا به ، يقول ابن الأثير : " وقد اعتنى[أي واضع اللغة] بأمور أخرى جزئية كمماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق كالغَلَيَان والضَرَبَان والنقدان والنزوان وغير ذلك مما جرى مجراه فإن حروفه جميعها متحركات وليس فيها حرف ساكن وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود"[(١)] .

ومن الصيغ أيضا ما جاء في روايات الاستعجال في العودة بعد السفر، كما في قوله ﷺ : "إذا قضى أحدكم نهمته فليعجِّل " ، هذه الصيغة "من التعجيل : أي فليرجع إلى أهله عاجلا لينجو من العذاب والمشقة"[(٢)] ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال وهم عائدون من غزوة : " قال النبي من أحب أن يتعجل إلى أهله فليعجل" ، قال العيني" قوله : فـ(ليُعجّل) ، وفي رواية الكشميهني فـ(ليتعجل) ، فالأول من باب التفعيل ، والثاني من باب التفعل"[(٣)] ، وقال المناوي : " (فليُعجّل) بضم التحتية"[(٤)] ، وأكثر الروايات عليها.

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق : د/ أحمد الحوفي ، ود/بدوي طبانة ، (دار الرفاعي بالرياض ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م).١ /٢٥٨.

(٢)الموطأ ، رواية محمد بن الحسن ٣ / ٤٨٥ .

(٣) عمدة القارئ ١٥٣/٤.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المناوي (دار الحديث ، القاهرة) ١٤١/٢.

والفرق بين الصيغتين أن "التفعيل يأتي للجعل[مثل التزيين]، ويأتي للنسبة كالتعليم وكالتفسيق والتزكية"[1]، كما "تفيد المبالغة في الفعل ؛ لأن التفعيل يدل على قوة حصول الفعل"[2]، بينما التفعل تدل على التكلف فيه[3]، ولهذا لما كانت هذا الصفة غير متوافرة في المسافر حث عليها ﷺ بهذه الصيغة في أكثر الروايات، ليقوم بها وإن لم تكن فيه.

ثانيا : الإفراد والتثنية والجمع :

صيغ العدد(الإفراد والتثنية والجمع) دلالات لا يحسن تجاوزها، خصوصا في مواطن المقارنة، والكثرة والقلة، وبالبحث في الأحاديث المدروسة نجد منها الكلمات المفردة الآتية :

(أمانتك ، عملك ، دينك ، التقوى ، ذنبك ، الخير ، التكبير ، شرف، البعد، السفر ، اسم ، الحمد ، نفسي ، ربك ، عبده ، الصاحب ، الخليفة، الأهل ، وعثاء ، كآبة ، المنظر ، سوء ، المنقلب ، المال ، القرية ، شر ، منزل ، التامة ، توباً ، أوباً، حوباً ، العذاب ، طعامه ، شرابه ، نهمته ، الحور ، الكور، دعوة ، المظلوم ، المنظر) .

وأما الكلمات المثناة فلم ترد – فيما ظهر لي- إلا في كلمتي(الراكبان شيطانان)، وأما المجموعة فمنها : (ودائعه ، خواتيم ، الذنوب ، آيبون ، تائبون، عابدون ، حامدون ، السموات ، السبع ، الأرضين ، الشياطين ، الرياح ، كلمات) .

---

(١)التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (الدار التونسية، الدار الجماهيرية ط بدون). ٢/ ٢٩٤.

(٢)التحرير والتنوير ٧/ ٤٠٧.

(٣)التحرير والتنوير ٢/ ٢٦٩

ومن خلال النظر في الدلالة العامة فيما ذكرنا نجد أن المفرد أكثر حضوراً، وهذا هو الأمر المعتاد ، ولكن ما يلفت النظر كثرة الجموع فهي تقارب الثلث، وهذا يعني أن حضور الجمع في قضية السفر واضحة ، ولعل في ذلك إشارة إلى الدعوة إلى ذلك ، وبتأمل النصوص ، نجد ما يدعم ذلك من النهي عن السفر منفرداً ، وتشبيه المسافر بالشيطان وكذلك الاثنان ، والثلاثة ركب، قال صلى الله عليه وسلم : " الراكب شيطان والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب".

هذا من حيث الدلالة العامة ، أما الدلالات الخاصة فسنقتصر في الحديث عنها على ما جاء في صورة الموازنة، مثل قوله ﷺ: "أستودع الله دينك، وأمانتك وخواتيم عملك "، وقوله ﷺ " آيبون، تائبون، عابدون ، لربنا حامدون "، وقوله ﷺ " توباً توباً ، لربنا أوباً، لا يغادر حوباً "، وقوله ﷺ"كلمات الله التامة " .

وعند الوقوف عند هذه الشواهد نجد دلالة الإفراد والجمع فيها على النحو التالي: جاءت كلمة (خواتيم) مجموعة بين ثلاث كلمات مفردة هي (دينك ، أمانتك ، عملك)، ومقتضى السياق أن تفرد فيقال : (خاتمة عملك) .

وفي توجيه ذلك لابد أن نعرف أن هذا الحديث هو في توديع غير المسافر للمسافر[1] ، بدليل قول ابن عمر رضي الله عنه لمن أراد سفراً : " ادن مني أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا " ، ولعل سر الإفراد في الأمانة والدين والعمل أنها جنس واحد ، وأنها من الشهادة لا من الغيب ، فالإنسان يعرف ما ينبغي له فعله ، لكن الخاتمة أمر يجهله ، لأن المراد بها ما يختم به للإنسان حين موته ، والخواتيم متنوعة لذلك جمعت ، وفي الجمع إشارة إلى كثرة الخطر ،

---

(١) انظر العلم الهيب ٤٣١.

وخصوصاً أن السفر مظنة الهلاك ، ومظنة المزلة أيضاً، ولو قيل (خاتمة) بالإفراد لربما أوهم ذلك أنها خاتمة واحدة لا محيد عنها ، ولا ثاني لها ، ولو كان الأمر كذلك لأمكن تحاشي خاتمة السوء لانحصارها في واحدة .

وجاء الجمع والإفراد في دعاء العودة (آيبون ، تائبون، عابدون، حامدون) و جاء الإفراد في (توباً ، أوباً، حوبا) وفي الجمع تقدير مبتدأ ضمير المتكلمين (نحن) : (نحن آيبون ، تائبون) وذلك لأن سياق الدعاء كله كان بالجمع (لنا ، كنا ، مقرنين ، نسألك ، سفرنا ...)، إلخ ، فناسب ذلك أن يكون بالجمع ، ولما في الجمع من الإشعار بالجماعة والركب وهو المأمور به في السفر ، وهو إنما يقوله وهو مع رفقته إذا رجع من السفر، وفي هذا إلماحة إلى عظم شأن الرفقة، وضرورة استمرار اجتماعهم مع بعضهم من أول السفر حتى نهايته.

وأما ما ورد بالإفراد (توباً ،أوباً، حوباً) فإنه يقوله إذا انفرد عن رفقته ودخل على أهله، وجاء التعبير عن التوبة والآوبة هنا بالمصدر، وهناك بالمشتق (اسم الفاعل مجموع)، والتقدير هنا : تب علينا توباً ، أو نسألك توباً [1] ، فهو إما مفعول مطلق ، وأما مفعول به ، وإنما كان ذلك كذلك ؛ لأن التعبير بالمصدر يتناسب مع المفرد وغيره ، مع إشعاره بالتوكيد ، فالموقف هنا لا يناسب الجمع الصريح، لانفراد القائل عن رفقته، والملحوظ تقديم التوب هنا على الأوب ، بعكس دعاء الرجوع (آيبون ، تائبون) وسر ذلك أن المهم عند المسافر حال سفره هو عودته لذا قدم (آيبون)، وهذا ما قد يرجح كون المقصود بالأوبة في الجمع الرجوع للأهل ،وأما هنا فقد وصل أهله فالاهتمام بالتوبة، والأوب هنا تبع لها ؛

(١) انظر : العلم الهيب ٤٥٤.

لأنه ليس المقصود به العودة للأهل بل إلى الله، فهو في معنى التوبة ، ولأجل التفريق جاء الجار والمجرور هنا فقيل (لربنا أوباً)، وهناك لم يأت فلم يكن (إلى ربنا آيبون) ، والفرق بين التوب والأوب مع أنهما متقاربان ، أن التوب هو ترك الذنب على أجلّ الوجوه ،وهو أبلغ من الاعتذار، ومعنى الأوب : الرجوع إلى ساحة فيضك من سائر المخلوقات ، وهو إيماء إلى العزم على عدم الرجوع إلى الذنب وهو أمر مهم في قبول التوبة [1] .

المطلب الثاني : تنكير الكلمة وتعريفها :

لتنكير الكلمة وتعريفها أثر في دلالتها، ومرد ذلك إلى الفروق الدلالية بين النكرة والمعرفة، من حيث الشيوع والتحديد، ومن حيث مستويات الدلالة في نوع المعرفة ذاتها.

أولا : تنكير الكلمة :

كثيرا ما ترتبط النكرة بدلالة السعة والشيوع، ولعل من ذلك كلمة (كل) في قوله صلى الله عليه وسلم في وصيته الرجل : " والتكبير على كل شرف " فالإضافة هنا لم تنقل النكرة (كل) من عموميتها، بل خصصتها بالشرف، لأنها أضيفت إلى نكرة، وفي ذكر كلمة (كل) الدالة على الشمول بوضعها ، والشيوع بكونها نكرة ، دليل على العناية بأمر التكبير ، وألا يذهل عنه المسافر ، وهذا أمر غائب في كثير من أسفارنا ، مع أن كلمة (كل) هنا توحي بالاهتمام بذلك .

ونجد لكلمة (شيء) المنكرة في قوله صلى الله عليه وسلم (لم يضره شيء) وقعاً خاصاً، فالحديث عن حفظ الله لمن استعاذ بكلماته ، فجاءت كلمة (شيء)

---

(١) انظر: أحكام السفر وآدابه ، دراسة مقارنة د. محمود حسين الحريري ، (دار عمار ، عمان ن ط (١) ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٦ م) ص ٣١٧.

لتدل على الشمولية والشيوع أي : أي شيء ، وهذا فيه زيادة طمأنة لمن يحافظ على هذا الذكر العظيم .

ونجد التنكير قد كثر في دعاء العودة بخلاف دعاء السفر، مثل: (آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون) ، عند الدخول على الأهل: (توباً توباً ، لربنا أوباً ، لا يغادر حوباً)، وذلك لأنه ليس المراد هنا التحديد، بل الوصف العام لحالهم في الأوبة والرجوع، والتعميم في طلب التوبة والتجاوز، لأن ذلك أعظم في الخير.

ثانيا: تعريف الكلمة:

للتعريف صور كثيرة ، ولكل منها مدلولها ، ومن ذلك في أحاديث السفر.

أ- التعريف بالموصول :

كقوله صلى الله عليه وسلم : " مَن أراد أن يسافر ، فليقل لِمَن يخلف ، أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه" .

فهنا نجد الاسم الموصول (مَنْ) في قوله (لِمَن) وهو اسم موصول مشترك، ولم يقل (للذين يخلفهم) ، لبيان أن ما يدخل تحت هذا الاستيداع قد يكون قليلاً وقد يكون كثيراً ، ذكرا أو أنثى ؛ ولهذا ناسب أن يكون الموصول عاماً دالا على العقلاء وهو (مَنْ).

والموصول الثاني هو: (الذي) في قوله : (الذي لا تضيع ودائعه) ، وهنا نجد أن المعرَّف محدد ، فهو وصف له سبحانه ، وجاء تعريف الرب سبحانه بلفظ الجلالة (الله) ، ثم عرف ثانياً بـ (الذي لا تضيع ودائعه) ، وسر التعريف بالموصول مع كفاية التعريف بلفظ الجلالة ، لما في الموصول من بيان علة وحكمة طلب الاستيداع ، فهو وحد الذي لا تضيع عنده الودائع، لذا لزم استيداع الأهل

عنده سبحانه، وهذا لفت مهم لأنظار المؤمنين في الاهتمام بهذه الأدعية، حتى يسلموا من كثير من آفات غيابهم عن أهاليهم ؛ لأن المقصود من هذا الاستيداع هو الحفظ ، ولعل هذا هو أهم ما يهم المسافر إذا غاب عن بيته ، لذا أورد ابن تيمية في الكلم الطيب بعد هذا الحديث مباشرة ما يدل على كون الاستيداع للحفظ فقال : " وعن ابن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله إذا أُسْتُودِعَ شيئاً حفظه "[(١)].

ب- التعريف بـ (أل) :

مثل قوله صلى الله عليه وسلم للرجل لما ولى : " اللهم اطو له البعد ، وفي رواية (الأرض) وهون عليه السفر " ، وفي التعريف بـ (أل) في (البعد) و (الأرض) و (السفر) ما يدل على العهد بهذه المذكورات وأنها معروفة للسامعين ، والمخاطبين ، ولم يقل صلى الله عليه وسلم "اللهم اطْو له بُعْدَ السفر " بالإضافة ، ولا (هوّن عليه سفره) بالإضافة أيضاً ، لأن المراد تعليم الجميع وإن كان الدعاء خاصا له ، كما أن الإضافة هنا لا تعطي معنى جديداً ، و (أل) أخصر منها ، وقد تكون (أل) للجنس فتشمل كل جنس للبعد والسفر ، كما جاء ذلك في كلمة (الخير) في دعاء النبي صلى الله عليه وسلّم للرجل الذي طلب تزويده، حيث قال له : " (ويسر لك الخير) ؛ ليشمل كل صور الخير وألوانه ، قال الطيبي : " التعريف في (الخير) للجنس فيتناول خير الدنيا والآخرة "[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه، وانظر: الكلم الطيب، ابن تيمية، تحقيق : الألباني(المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة : ٣ – ١٩٧٧)، ١/ ١٤١.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري(دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م) ٩/ ٢٨٥.

وكذلك التقوى في قوله ﷺ : " زودك الله التقوى " حيث جاءت معرفة، وذلك أن التقوى أصبحت من كثرة فضائلها وذكرها في النصوص كالعلم المعروف، الذي إذا ذكر عُرف ، بينما مع الذنب لم يقل ﷺ : " وغفر لك الذنب " بل قال : " وغفر ذنبك " ، لأنه أمر يخصه ، وما يهم هذا السائل هو أن يغفر ذنبه هو، كما أن ذلك آنس في مخاطبته، وأكثر إشعارا له بالاهتمام بما يخصه .

ونجد التناوب في التعريف بين الإضافة و(أل) في كلمة (سفر) في قوله صلى الله عليه وسلم (سفرنا هذا) بالإضافة ،وفي قوله ﷺ: (الصاحب في السفر) بـ (أل) ، وقد جاء التعريف بالإضافة إلى ضمير الجماعة (نا) في أول الدعاء في قوله ﷺ: " اللهم هوّن علينا سفرنا هذا" وتم دعمه وتحديده باسم الإشارة (هذا)، وفي التعريف بالإضافة هنا ما يشعر بنسبة السفر إلى الجماعة، وأن دعاءهم يخص هذا السفر بدليل اسم الإشارة (هذا) ، فلما عُلم هذا وتم تحديده كان المناسب ، أن يُعرّف بعد ذلك بـ (أل) لتكون للعهد الذكري، ليتواصل الحديث عن أمر واحد، وتكون كل الأحكام والآداب متصلة به.

ويمكن أن تكون (أل) للجنس، ويكون المراد جنس السفر أياً كان، فيكون التحديد الأول بالإضافة(سفرنا هذا) لأنه أول ورود لمفردة السفر فناسب أن يكون مخصوصا بالمتكلم، وما جاء بعد ذلك كان بـ(أل)، ليكون صالحا لكل سفر، وبهذا يكون النص قد جمع بين دلالتي الخصوص والعموم.

أ- التعريف باسم الإشارة :

وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم " هون علينا سفرنا هذا "، ففي اسم الإشارة(هذا) تحديد دقيق لموطن الدعاء، ولو أريد التعميم لقيل: هون علينا السفر، ومما يدل على الاهتمام بالتحديد الدقيق الإضافة إلى ضمير المتكلمين

(سفرنا)، وهذا أكثر تلاؤما مع حال المسافر الذي أهمه سفره المتلبس به، أما غيره من الأسفار فليس له تعلق به في تلك اللحظة .

وكذلك نجد اسم الإشارة في قوله ﷺ في وصف حال من استعاذ بكلمات الله التامة : " لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك "، فقوله ﷺ : (ذلك) فيه عناية واضحة بتحديد موطن الحماية، وفي هذا بيان أن لكل منزل دعاءه مهما تعددت المنازل أو كثرت، وبهذا يكون المؤمن دائم الاتصال بربه .

* * *

المبحث الثاني : دلالة التركيب :

لعلاقة الكلمات بعضها ببعض أثر كبير في رسم معالم محددة لدلالات معينة، وهذا ماسنحاول بيانه من خلال ما يأتي من ظواهر التركيب البلاغي :

المطلب الأول: التقديم والتأخير:

يكون التقديم أحيانا في الإسناد ، أي ما يتعلق بعلاقات الكلمات بعضها ببعض ، وأحيانا يكون في غير ذلك ، ولكل من هذين النوعين صور متعددة نقف مع عدد منها .

أولا : التقديم في الإسناد :

من ذلك تقديم الفاعل المعنوي على فعله ، وخصوصاً إذا كان ضميراً مثل قوله ﷺ : "إني ظلمت نفسي" فهذا التركيب مكون من : الحرف الناسخ (إنّ) ، والضمير(ياء المتكلم) ، الذي هو مبتدأ في الأصل، وهو الفاعل المعنوي أيضا، والفعل (ظلمت) ، الذي هو الخبر ، وهذا من قبيل تقديم المسند إليه(الفاعل المعنوي) على خبره الفعلي ، وهو أسلوب يدل على التوكيد بسبب تكرار الإسناد، فالظلم هنا أسند إلى الضمير في (إني) على أنه خبر له ، وأسند مرة ثانية إلى (تاء) على أنه فاعل له ، ويستخدم هذا الأسلوب لتأكيد المعنى والاهتمام به.

وقد تكرر مثل هذا التركيب في قوله ﷺ: " إنا نسألك في سفرنا هذا ، إنا نعوذ بك من وعثاء السفر "، وهذه المعاني التي انتظمتها هذه الأساليب (سؤال البر والتقوى ، التعوذ من وعثاء السفر) من أهم ما يهم المسافر، وفي تقديم الفاعل المعنوي(للسؤال والتعوذ) بيان لمدى اهتمام المتكلم بإسناد ذلك الفعل إلى ذلك الفاعل.

ومن تقديم الجار والمجرور على متعلقه قوله صلى الله عليه وسلم : " ومن

العمل ما ترضى" ، فقد تقدم الجار والمجرور (من العمل) على الفعل (ترضى)، وتقدير الكلام قبل التقديم :(وما ترضى من العمل) ، وفي التقديم عناية بشأن العمل واهتمام به ، وذلك لأن السفر مظنة لتغير العمل ، أو لنقصه ، أو للتهاون به ، وتعميم العمل بـ(أل) الجنسية، ليشمل كل عمل مرض ، فالمطلوب هو سؤال الله أن يكون جنس ما يعمله المسافر هو مما يرضاه الله .

يضاف إلى هذه الدلالة المعنوية ، ذلك التوافق الصوتي الجميل بين (التقوى) و (ما ترضى) بسبب هذا التقديم .

ومن تقديم الجار والمجرور قوله صلى الله عليه وسلم " لربنا حامدون " والتقدير : (حامدون لربنا) ، وقوله صلى الله عليه وسلم " لربنا أوباً " والتقدير (أوباً لربنا) .

يقول العيني " قوله (لربنا) متعلق بقوله (حامدون) وتأخير الفعل للاختصاص"[1]، والسؤال هنا عن تخصيص (حامدون) بالجار والمجرور وتقديمه عليه، وقد جعل العيني الجار والمجرور (لربنا) إما خاصاً بـ (حامدون) أو (ساجدون) وإما عاما لسائر الصفات[2] .

والظاهر أن التقديم للتخصيص – كما ذكر العيني – وأنه مخصوص بما ذكر من الحمد والأوب ، وذلك أن الحمد قد يكون لله وقد يكون لغيره ، فكان تقديم الجار والمجرور هو علامة التخصيص ، فهو حمد له تعالى وحده، وهذا يوقفنا على قدر النعمة والمنة من الله لمن تم له سفره ، وأراد العودة إلى بلده ، أو شارف على وصولها ، وكذلك الأوب في قوله (أوبا) فإن التقديم للتخصيص ، لأنه قد

---

(١) العلم الهيب ٤٤٠.

(٢) عمدة القارئ ٢/ ٤١١.

يتصور أن يكون الأوب للأهل مثلا ، وأما بقية المذكورات من العبادة فهي لله وحده دون تقديم ، والسجود كذلك ، وكذلك التوبة ، والإياب في آيبون من العودة إلى الله لا من التوبة فلم يحتج كل ذلك إلى تخصيص إلا ما ذكرنا .

وقد لا يكون هناك تقديم أصلاً وذلك إذا تعلقت (ربنا) بما قبلها (عابدون)، يقول الطيبي : " (لربنا) يجوز أن يتعلق بقوله (عابدون) ، لأن عمل اسم الفاعل ضعيف فيقوى به ، أو (بحامدون) ليفيد التخصيص أي نحمد ربنا ، لا نحمد غيره ، وهذا أولى لأنه كالخاتمة للدعاء"[(١)] .

ثانيا: التقديم في غير الإسناد :

وهذا النوع صوره كثيرة نذكر منها قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن يريد سفراً : "أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك " ، فقدم الدين ثم الأمانة ثم خواتيم العمل، وفي هذا يقول المناوي : " وقدم الدين لأن حفظه أهم "[(٢)] ، والسفر قد يكون سبباً في الإخلال به ، قال الخطابي : "وذكر الدين مع الودائع ؛ لأن السفر موضع خوف وخطر، وقد تصيبه فيه المشقة والتعب، فيكون سبباً لإهمال بعض الأمور المتعلقة بالدين، فدعا له بالمعونة والتوفيق "[(٣)] .

وليس الأمر مقصوراً على المشقة ، بل وعلى الملهيات أيضاً ، فالعين ترى في السفر ما لا تألفه من قبل، فقد يكون ذلك سبباً للهو القلب ، وهذا ملمح لطيف، وتوجيه يطابق الحقيقة تماماً ، لذا كان التقديم موحياً بكل هذا: " وذلك لأن السفر

---

(١) تحفة الأحوذي ٩/ ٢٨٩.

(٢) فيض القدير ١/ ٥٠٢.

(٣) معالم السنن، للخطابي، خدمه : عبدالسلام عبدالشافي محمد(دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون، ١٤١٦هـ، ١٩٦٦م) ٢/ ٢٢٤.

محل الاشتغال عن الطاعات التي يزيد الدين بزيادتها وينقص بنقصانها "[(١)].

ومجيء الأمانة بعد ذلك ، مع أنها من الدين مما يدل على أهميتها ، وخصوصاً في السفر ؛ لأن السفر مظنة التعب والنصب ، وهو موطن الحاجة للمال ، ويكثر فيه قطاع الطريق ، وكل ذلك تعسر معه الأمانة ، فلما كان ذلك كذلك نص عليها بعد الدين ، وقد تكون الأمانة عامة فتعم أمانة البصر ، والعين ، والمال ، والمسؤولية ، وغير ذلك ، وعلى هذا فالأمر أظهر ، جاء في تحفة الأحوذي : " أي احفظ أمانتك فيما تزاوله من الأخذ والإعطاء ومعاشرة الناس في السفر ، إذ قد يقع منك هناك خيانة ، وقيل أريد بالأمانة : الأهل والأولاد الذين خلفهم ، وقيل المراد بالأمانة : التكاليف كلها ..." [(٢)] .

ومما جاء فيه التقديم التعوذ من مجموعة أمور جاءت على الترتيب الآتي : " اللهم : إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل ".

ونلحظ كيف جاء التعوذ في هذا الحديث بهذه الرواية من ثلاثة أمور بهذا الترتيب ، وقدم التعوذ من وعثاء السفر على البقية ، لأنها مما لا يسلم منه أحد في السفر ، ولتعلقها بالنفس ، لأن الوعثاء هي " المشقة والشدة وأصله من الوعث وهو الرمل ، والمشي فيه يشتد على صاحبه ويشق " [(٣)] ، وهي " شدة النصب

---

(١) فيض القدير ٥٠١/١.

(٢) تحفة الأحوذي ٢٨٤/٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ، تحقيق : طاهر الزاوي ، ومحمود الطناحي ، ٠ المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م) ٥/ ٤٤٨ ، وانظر أيضاً : شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، النووي ، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ) ١١١/٩ .

والمشقة " [(١)] ، ثم يأتي بعد ذلك ما قد يعرض من الكآبة والحزن وتغير النفس بسبب ما يرى من المنظر في طريقه ، ثم سوء المرجع إلى أهله.

ولمن تأمَّل ذلك وجد هذه الثلاثة جاءت في هذا النص على أبدع ترتيب ، فالمشقة شاملة للسفر من أوله إلى منتهاه ، لذا قدمت ، وكآبة المنظر في أثنائه ، وسوء المنقلب عند نهايته، وهذا الاستيعاب العجيب للأقسام نوع من أنواع البلاغة النبوية ، وهو من جوامع الكلم الخاص به صلى الله عليه وسلم ، وإذا أضيف إلى ذلك: (الحور بعد الكور)، (ودعوة المظلوم) [(٢)] وهي أمور تخص تغير الدين، وحقوق الناس ، فإذا اجتمع كل ذلك حصل التحصن الكامل للمسافر من كل ما يخشاه في جسده من المشقة ، أو نفسه من الكآبة ، أو أهله وماله من الفقد أو الضياع ، أو دينه من التغير والظلم .

(١)غريب الحديث ، لابن سلام ، تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط (١)، ١٣٩٦ هـ) ، ٣٠٩/١.

(٢) جاء عند الترمذي :"كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر يقول اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا ومن الحور بعد الكون ومن دعوة المظلوم ومن سوء المنظر في الأهل والمال" وقال هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني : صحيح روى سنن الترمذي .

وقال الترمذي :"ويروى الحور بعد الكور أيضا قال ومعنى قوله الحور بعد الكون أو الكور وكلاهما له وجه إنما هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر أو من الطاعة إلى المعصية إنما يعني الرجوع من شيء إلى شيء من الشر " الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، الترمذي، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون، (دار إحياء التراث العربي – بيروت) ٥ / ٤٩٧ ، وقال النووي :" مَعْنَاهُ : بِالرَّاءِ وَالنُّون جَمِيعًا : الرُّجُوع مِنْ الِاسْتِقَامَة أَوْ الزِّيَادَة إِلَى النَّقْص ، قَالُوا : وَرِوَايَة الرَّاء مَأْخُوذَة مِنْ تَكْوِير الْعِمَامَة وَهُوَ لَفّهَا وَجَمْعهَا ، وَرِوَايَة النُّون مَأْخُوذَة مِنْ الْكَوْن مَصْدَر كَانَ يَكُون كَوْنًا إِذَا وُجِدَ وَاسْتَقَرَّ"، شرح النووي على مسلم - ٥ / ٦.

ومن ذلك أيضاً ما يُسأل وقت السفر ، وهي ثلاثة أمور واردة في قوله ﷺ : "اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى "[1].

وسر تقديم البر على غيره ، ما تشتمله هذه الكلمة من معان فهي تأتي بمعنى الصدق ، والطاعة ، والتقوى ، والصلاح ، " وقال بعضهم : البر : الخير... ولا أعلم تفسيراً أجمع منه، لأنه يحيط بجميع ما قالوا " [2].

وجعل الفيروز آبادي معاني البر تدور حول : الصلة ، والجنة والخير والاتساع ؛ فلأجل هذه السعة في مدلولات هذه الكلمة ، كانت في مقدمة ما يُسأل في السفر ؛ لأنه موطن إجابة ،كما قال صلى الله عليه وسلم : " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم "[3].

وبهذا يكون ما بعد البر(التقوى ، والعمل المرضي) داخلا فيه ، فيكون ذكره من باب التفصيل بعد الإجمال .

ومن هذا القبيل ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم لمن استزاده ، فقد قال له : " زودك الله التقوى ، قال الرجل زدني ، قال : وغفر ذنبك ، قال : زدني ، قال : ويسر لك الخير حيثما كنت ".

قال الطيبي : " يحتمل أن الرجل طلب الزاد المتعارف ، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه على طريقة أسلوب الحكيم ، أي : زادك أن تتقي محارمه وتجتنب معاصيه ، ومن ثم لما طلب الزيادة قال : وغفر ذنبك ، فإن الزيادة من جنس المزيد

---

(1) صحيح مسلم ٢ /٩٧٨ .

(2) لسان العرب ، ابن منظور ، (دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م) مادة برر .

(3) سنن أبي داود ، ح(١٥٣٦) ٢ /٨٩ ، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داوود : حسن.

عليه، وربما زعم الرجل أن يتقي الله وفي الحقيقة لا يكون تقوى تترتب عليه المغفرة، فأشار بقوله: وغفر ذنبك أن يكون ذلك الاتقاء بحيث يترتب عليه المغفرة، ثم توقي منه إلى قوله: ويسر لك الخير فإن التعريف في الخير للجنس فيتناول خير الدنيا والآخرة" [(١)].

المطلب الثاني : الإيجاز والإطناب :

جمع الكلام النبوي بين الإيجاز بنوعيه، وخصوصا ما يندرج تحت الوصف العظيم لكلامه ﷺ: " أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ" [(٢)]، وكذلك جاء في كلامه الإطناب في موضعه ومن شواهد ذلك قول أبي أمامة رضي الله عنه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم تكلم ثلاثا لكي يفهم عنه" [(٣)].

أولا : الإيجاز :

الإيجاز قد يكون بالحذف ، ويسمى إيجاز الحذف ، وقد يكون بقلة الألفاظ وكثرة المعاني ويسمى إيجاز القصر .

أ- إيجاز الحذف :

يمكن أن يكون الحذف في الحرف ، أو الكلمة ، أو الجملة والجمل، ولذلك من لطف المعنى، وسعة المدلول ما يعجب منه الإنسان، حتى إنه ليكون أحيانا أوضح من الذكر، وإلى هذا يشير عبد القاهر بقوله عن الحذف: " هو بابٌ دقيقُ

---

(١) تحفة الأحوذي ٢٨٥/٩ .

(٢) صحيح مسلم، ح(٥٢٣)، ٣٧١/١.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي عبدالحميد السلفي (مكتبة الزهراء الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م)، ح(٨٠٩٥)، ٢٥٨/٨، و قال الهيثمي في المجمع :"إسناده حسن" ١ / ٣٤١، وأصله في البخاري ح(٦٢٤٤) .

المسلك ، لطيفُ المأخذ ، عجيبُ الأمر ، شبيه بالسِّحر ، فإنَّك ترى به ترك الذِكْر أفصحَ من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة ، وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ ، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن "[١].

ومن الحذف الوارد هنا حذف حرف النداء (يا) من قوله ﷺ : " اللهم " في أكثر من موقع ، وأصل هذه الكلمة يا الله ، ثم حذفت الياء وعوض عنها الميم في آخر الكلمة ، يقول ابن منظور : " وقال الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم : (اللهم) بمعنى : يا الله ، وأن الميم المشددة عوض عن (يا) ، لأنهم لم يجدوا (يا) ، مع هذه الميم في كلمة واحدة ، ووجدوا اسم الله مستعملاً بـ (يا) ، إذا لم يذكروا (الميم) ، في آخر الكلمة فعلموا أن (الميم) في آخر الكلمة بمنزلة (يا) في أولها ، والضمة التي هي في (الهاء) هي ضمة الاسم المنادى المفرد ، و(الميم) مفتوحة لسكونها وسكون (الميم) قبلها ، وكثرت (اللهم) في الكلام حتى خففت ميمها في بعض اللغات " [٢] .

وهذا التعويض الذي يذكره النحاة يريدون به : " أن لحاق الميم باسم الله في هذه الكلمة لما لم يقع إلا عند إرادة الدعاء ، صار غنيا عن جلب حرف النداء اختصارا ، وليس المراد أن الميم تفيد النداء "[٣] .

ويظهر مما سبق أن هذه الكلمة (اللهم) تتميز عن غيرها في النداء ، فأصلها (يا الله) مثل كل الأسماء ، فلما أريد بها الدعاء ، حذفت (يا) دلالة على

---

(١)دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق : د.محمد التونجي ، (دار الكتاب العربي – بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥م) ١ / ١٢١.

(٢)لسان العرب مادة (أَله) .

(٣)التحرير والتنوير ١ / ٧٣٧ .

القرب، ثم عوض عنها بـ (الميم) المشعرة بالجمع والتأكيد بما فيها من ضم الشفتين وانطباقهما عند النطق بها ، والتشديد الظاهر فيها ، وقد تشير كل هذه المؤشرات إلى شدة الاعتماد على المدعو سبحانه ، وتأكيد ندائه ودعائه ، كما أن هذا الحذف و التعويض جعل للكلمة سمة مميزة عن غيرها ، لأنها دعاء الخالق بلفظ الجلالة الله وهو الاسم الذي لايشاركه فيه غيره.

ومن صور الحذف حذف الكلمة ، ومن هذا القبيل حذف مفعول (اغفر) في قوله صلى الله عليه وسلم : " إني ظلمت نفسي فاغفر لي " ، والتقدير ، فاغفر لي ذنوبي ، بدليل ذكره بعد ذلك : إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، والعجيب أنه ذكر المفعول في حكاية قول العبد في نهاية الدعاء " إن ربك سبحانه يعجب من عبده إذا قال اغفر لي ذنوبي " فما سر ذلك ؟

جواب ذلك أن هناك ارتباطا بين كلمة الغفران وكلمة الذنب ، فإذا ذكر فعل (غفر) عُلِم أن المطلوب غفره هو الذنوب ، ولهذا يحذف كثيراً ، ومما حسّن الحذف هنا ، ذكر ذلك بعده ، (إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) ، وذكر المفعول في جملة التعليل ألطف لأنه ثناء ، والأول طلب يحسن فيه القصر والإيجاز .

وأما ذكر المفعول في حكاية الله لقول الداعي في نهاية الحديث ، فلأنه في مقام المنة على العبد ، فذكر الذنوب تشعر بعظم حاجة العبد إلى ربه ، وهذا يفضي إلى عظم منة الرب على عبده.

ومن هذا حذف المبتدأ في : " آيبون ، تائبون ، عابدون " وتقديره : نحن آيبون ، نحن تائبون وهكذا ... ، يقول : ابن حجر " قوله : (آيبون) جمع آيب أي راجع وزنه ومعناه ، وهو خبر مبتدأ محذوف والتقدير : نحن آيبون "[1]، ويقول العيني : " وارتفاع آيبون على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي "نحن آيبون" ، وكذلك

(١) فتح الباري ١١/١٨٩.

ارتفاع : تائبون ، وعابدون ، وساجدون"[١] .

وسر الحذف هنا ؛ أن وجود المتحدث يغني عن ذكر المبتدأ ، كما أن الحذف يوحي بالسرعة المطلوبة من المسافر إذا قضى مهمته من السفر، التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم (فليعجل)، فكأن المقام قد ضاق حتى عن ذكر المبتدأ ، من كثرة الشوق للعودة للوطن والأهل ، وهذا أمر قد فطرت عليه النفوس .

ومن هذا القبيل حذف الفعل كما في قوله صلى الله عليه وسلم: " توباً توباً " ف " توباً" هنا "منصوب إما على تقدير: تب علينا توباً ، وإما على تقدير: نسألك توباً"[٢] ، وحذف الفعل هنا يشعر بانصراف الاهتمام إلى المفعول (توباً)، ومما يؤكد ذلك تكرار هذه اللفظة (توباً توباً)[٣] ، وهذا يبين ضرورة التنبه لموضوع التوبة في السفر ، وخصوصاً في نهاياته وعند العودة للأهل، وقد حذف المبتدأ – كما رأينا من قبل – مع تائبون عند القفول من السفر مما يشعر بأهمية هذا الموضوع، الذي يتهاون به كثير من الناس عند انتهاء أسفارهم .

ب- إيجاز القصر:

هذا النوع كثير في كلام المصطفى ﷺ ، لأنه يمثل بعض وصف (جوامع الكلم) المعروفة في كلامه ﷺ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " السفر قطعة من العذاب " فهذه جملة موجزة اختصرت كل ما في السفر من المشقة النفسية والجسدية والمالية ، وصورت قدر ما يعانيه المسافر من الغربة ، ووعورة الطريق ،

(١) عمدة القارئ ١٣٢/١٠.

(٢) العلم الهيب ٤٥٤.

(٣) وهنا نجد كيف اجتمع الإيجاز (بالحذف) ، مع الإطناب(بالتكرار)، وربما يكون ذلك من سمات الكلام النبوي.

وما قد يعرض له من العوارض وقلة الزاد ، وسوء الصحبة أحياناً والضياع وغير ذلك كثير ، كل هذا في جملة موجزة بليغة ، وسيأتي مزيد بسط لدلالتها في الكلام عن التصوير إن شاء الله .

ونلحظ مثل هذا في قوله صلى الله عليه وسلم : " أستودعكم الله " فجعل أهله وديعة عند الله ، وفي لفظ الوديعة من الإيحاء بالحفظ والرد على أحسن صورة ما لا يخفى على أحد ، فكيف إذا كان المستودَع هو الحفيظ العليم ، ولم يرد تفصيل للمستودَع ، الذي يشمله ضمير(كم) ، وهذا الإبهام والإيجاز جعل المعنى أوسع من التفصيل والتعداد ، فأدركنا من خلاله أن المراد هو : الأهل ، وصحتهم ، ودينهم ، والمال ، والمنزل ، وأموراً كثيرة قد يطرأ عليها الخلل بغياب رب البيت ، لذا جاء هذا الاستيداع عاماً شاملاً ، وهذا يتناسب مع تعدد الأهل وحاجياتهم ؛ ولهذا كان هذا الدعاء من المسافر لمن يَخْلُف ، وأما العكس وهو توديع الأهل لمن يسافر ففيه نوع تفصيل كما يظهر من قوله ﷺ : " أستودع إليه دينك ، وأمانتك ، وخواتيم عملك " ، وحتى هذا التعداد وإن كان تفصيلاً في الظاهر إلا أنه جمع فأوعى ، فهذه الثلاثة هي ما يمكن أن يؤثر عليه (السفر والغياب) ، وهي ما يهم المسافر وأهله ، فتأمل الفرق بين الدعائين وما فيه من اللطف والمغايرة بحسب الحال في كل منهما .

ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن استزاده (زودك الله التقوى) ، ولمن استوصاه : " عليك بتقوى الله " ، والتقوى -كما هو معلوم- كلمة جامعة للخير ، تشمل فعل كل مأمور وترك كل محذور ، مبناها مخافة الله ومراقبته ، وهذا أيضاً من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم ، لأن من توفرت له التقوى حفظ سمعه وبصره وسائر جوارحه ، فسلم له دينه وأمانته وخواتيم عمله ، وكما نلحظ

من هذه الجمل ذات الدلالات الواسعة أن الأحاديث في هذا المجال كانت منظومة واحدة يكمل بعضها بعضا ، مدارها حول حفظ الله للمسافر في نفسه ودينه من مشاق السفر أو مغرياته ، وحفظه في أهله من الضياع وحصول المكروه .

ثانياً : الإطناب :

للإطناب صور كثيرة ، ورد منها في هذه الأحاديث ما يأتي :

أ- زيادة الأوصاف :

زيادة الوصف مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه " ، فإن المعنى يتم عند لفظ الجلالة (الله) ، فجاء الموصول وصلته : " الذي لا تضيع ودائعه " لإضافة معنى مهم يتمثل في نفي الإضاعة ، وفي ذكر الوديعة ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك عند الحديث عن التعريف بالموصول (الذي) ، وزيادة على ذلك نجد في هذه الزيادة لوناً من ألوان طمأنة المودَّعين ، لأن الموقف يستدعي ذلك ، فعندما يوصف المستودَع وهو الله سبحانه بذلك ، يكون في ذلك إضفاء لشعور الطمأنينة والأمان ، لأن المعنى أي : الذي إذا استحفظ وديعة لا تضيع ، فإنه تعالى إذا استودع شيئاً حفظه كما قال عليه الصلاة والسلام : " إن الله إذا استودع شيئاً حفظه"[1] .

وإذا تأملنا لفظ الوديعة علمنا ما فيها من العناية والحفظ والرد ، فإن " أصل الوديعة التخلي عن الشيء وتركه ، وإذا تخلى العبد عن الشيء وتركه لله واستحفظه إياه ، فقد تبرأ من الحول والقوة ، ورفض الأسباب ، فحصل له الحفظ والعصمة "[2].

---

(١) انظر : فيض القدير ١/٥٠٢.

(٢) فيض القدير ١/٥٠٢.

ب- استيفاء الأقسام :

وهذا يتضح في مثل قوله ﷺ : " أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك " فنجد هنا ذكرا لأهم ما تجب المحافظة عليه حال السفر .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إنا نسألك البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى " فالمطلوب سؤاله ثلاثة أشياء هي أعظم ما ينبغي للمؤمن سؤاله خصوصاً في السفر؛ لأنه لو حصل له ذلك لسلم من كل عوارض السفر المؤثرة على دينه وأمانته وخواتيم عمله ، وقد تقدم بيان دلالات هذه التراكيب في مبحث التقديم فأغنى عن الإعادة.

ج- التكرار.

التكرار نمط أسلوبي يثير الانتباه، ويرسخ المعلومة، ويعكس اهتمام المتكلم، ويمكن لحفظ صور ذلك مثل قول النبي ﷺ للرجل الذي قال " أريد سفراً فزودني، فقال صلى الله عليه وسلم : " زودك الله التقوى " فكرر الكلمة نفسها ، وقد أشرنا إلى دلالة ذلك في حديثنا عن الحرف .

ومن ذلك تكرار كلمة " اللهم " فقد تكررت في دعاء الركوب عند السفر أربع مرات : (اللهم إنا نسألك ، اللهم هون علينا ، اللهم أنت الصاحب ، اللهم إني أعوذ بك) .والذي يظهر أن التكرار هنا يوحي بالاهتمام بما بعد هذه اللفظة (اللهم) لأنها مفتاح الدعاء ، لأن معناها : يا الله ، وقد خصَّت بدعاء الله [(١)] .

وبتأمل ما بعدها نجد أهم ما يهم المسافر : (التقوى والبر والعمل الصالح ، وتخفيف السفر ومشقته وبعده ، وحفظ الله للمسافر ولأهله وماله ، والتعوذ من مفاجآت السفر ومصائبه) .

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي (دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، ط١ ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م) ١/ ٨٣.

ومن التكرار قوله صلي الله عليه وسلم إذا دخل على أهله من سفر : " توباً توباً " ، فنجد هنا تكراراً لكلمة (توباً) مرتين وهذا يعطي اهتماماً بأمر التوبة في حال السفر وبعده ، وهو أمر يغفل عنه الناس ، فقد يحدث في السفر ما يؤثّر على إيمان الإنسان ؛ لذا كان الاهتمام بالتوبة فيه واضحاً ، وذلك بتكرارها ، وذكر ما يعضدها ، كما في قوله ﷺ : (لربنا أوباً ، لا يغادر حوباً) ، وقد يكون في ذلك تنبيه للاستفادة من قبول دعاء المسافر حتى في آخر لحظة ، عند دخوله على أهله ، فهو يدعو بالتوبة ، والأوبة التي لاتدع ذنباً .

وكذلك كلمة (الأهل) فقد وردت في دعاء السفر الطويل مرتين (والخليفة في الأهل) ، (وسوء المنقلب في المال والأهل)، وفي هذا إلماح إلى العناية بشأن الأهل، وما يوحي به توديعهم لحظة الفراق، وهنا نجد النص على ذلك ظاهرا، ولانستغرب هذا الاهتمام بالأهل في حالة السفر إذا تأملنا حال أكثر المسافرين وعدم عنايتهم بأهليهم من حيث النفقة أو سرعة العودة، أو الاتصال أو غير ذلك .

ومن التكرار قوله صلى الله عليه وسلم : " أستودعكم الله ، الذي لا تضيع ودائعه" فهنا نجد مادة (ودع) تكررت في كلمة (ودائعه) مع أن كلمة (أستودعكم) في أول الكلام تدل عليها ، وقد أشرنا من قبل إلى بعض هذا، ونضيف هنا أن الزيادة في كلمة (ودائعه) ، فيها مشاكلة لفظية لطيفة توحي بالعناية بلفظ الوديعة لارتباطه بالحفظ والصون ، وتوديع الأهل للمسافر كما قوله : " أستودع الله دينكما وأمانتكما وخواتيم عملكما "، تؤيد الاهتمام بلفظ الوديعة ، يقول الطيبي : " أستودع الله ، هو طلب حفظ الوديعة ، وفيه نوع

مشاكلة التوديع "[1].

ومن التكرار ذكر المفعول المطلق كما في رواية " فلا يطرق أهله طروقاً"، فقوله طروقا معلوم بالفعل قبله، فكان في ذكره مزيد عناية بالتوكيد، وتوكيد الطروق خصوصا إما للاحتراز من توهم المجاز فيما يخص النهار، وإما لبيان أن الطروق على أنواع ، وهذا ظاهر فالمنهي عنه هو الطروق الذي لا يسبقه خبر بالقدوم، وبهذا لا يكون الطروق مكتملا في أسباب النهي ووجود العلة إلا إذا كان ليلا، مع عدم وجود علم بالقدوم، وهذا النوع الكامل هو ما جاء مؤكدا.

ومما يمكن أن نعده من التكرار قوله ﷺ: " إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً " ، فنجد أن كلمة (ليلا) مفهومة من كلمة(يطرق)، لأن الطروق لايكون إلا ليلا ، وبهذا يكون ذكر الليل من باب التوكيد، لأجل رفع المجاز، حتى لايظن أن النهي يشمل إطلاق الطروق على المجيء نهارا[2].

والنص على الليل لما فيه من مظنة التهمة التي جاء النهي لأجل تلافيها، يقول العيني: "ومعنى كون طروق الليل سببا لتخوينهم أنه وقت خلوة وانقطاع مراقبة الناس بعضهم بعضا، فكان ذلك سببا لتوطن أهله به ولا سيما إذا أطال الغيبة ؛ لأن طول الغيبة مظنة الأمن من الهجوم"[3].

ومن التكرار ما ذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه " إذا استوى على بعيره كبَّر ثلاثاً" يعني قال : (الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر) ، و" قال: الحمد لله ثلاث مرات " أي (الحمد لله ، الحمد لله ، الحمد لله) وهذا تكرار واضح للتكبير ،

---

(١) تحفة الأحوذي ٩/٢٨٤.

(٢) فتح الباري ٣ / ٦٢٠ .

(٣) عمدة القاري ٢٠ / ٢٢٠ .

والحمد ، يضاف إلى ذلك مايفهم من الأمر بالتكبير على كل شرف ، والتسبيح في كل منحدر ، وهذا التكرار يدل على العناية بأمر التكبير والتحميد والتسبيح ، فما مناسبة ذلك لأمر السفر؟

"مناسبة التكبير عند الصعود إلى المكان المرتفع ، أن الاستعلاء والارتفاع محبوب للناس لما فيه استشعار الكبرياء ، فيشرع لمن تلبس به أن يذكر كبرياء الله تعالى ، وأنه أكبر من كل شيء فيكبره ليشكر له ذلك فيزيده من فضله "(١) .

ويشمل هذا التكبير عند الاستواء والركوب لأنه ارتفاع وعلو ، وأما الحمد فيكون بعد التمكن من الركوب ؛ لأن فيه استشعارا لمنة الله حيث مكنه جلت قدرته من هذا المركوب وسخره له ، فهو يحمد الله ويشكره ، وبهذا يكون المسافر متذكرا لهذه النعمة ، وهذه يدفعه لرحمة الدابة والعناية بالمركوب فيؤدي إليه حقه.

المطلب الثالث : الخبر والإنشاء:

هناك فرق بين الأسلوب الخبري الذي يعتمد على المباشرة والتقرير والوضوح ، لأن غرضه إيصال معلومة أو لازمها ، وبين الإنشاء ، وخصوصاً الطلبي منه الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، وتخرج فيه الألفاظ عادة إلى معانٍ أخرى متعددة ، تتناسب مع غرض المتكلم ، و الموقف والحال.

أولا : الخبر:

من القضايا الدلالية المهمة في الخبر قضية التوكيد التي تختلف مقتضياتها حسب الحال والمقام ، ومن ذلك قوله ﷺ: " إن الله إذا استودع شيئاً حفظه " ، فالملحوظ هنا هو افتتاح هذا الخبر بـ (إن) التوكيدية اهتماماً بشأن ما بعدها ، وهذا

---

(١) تحفة الأحوذي ٩/٢٨٦.

الخبر يقع كالتمهيد لما ينبغي فعله مع المسافر ، ويتضح ذلك من إيراد النص بكامله، قال صلى الله عليه وسلم: " قال لقمان الحكيم: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه ، وإني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك " .

ويلمح من ذلك التمهيد أنه لتعليل ما يقال للمسافر ، وكما نلحظ فقد وردت فيه (إنّ) مرتين ؛ لأن السفر مظنة الهلكة والعطب، وموطن الغربة والبعد ، فجاء هذا الخبر بما يحمل من سمات التوكيد لبث الطمأنينة في نفس المسافر ، وتقوية عزيمته بأن الله معه يحفظه ويكلأه ، يقول المناوي في تعليل ورود هذا الخبر : " لأن العبد عاجز ضعيف، والأسباب التي أعطيها عاجزة ضعيفة مثله ، فإذا تبرأ العبد من الأسباب وتخلى من وبالها وتحلى بالاعتراف بالضعف ، و استودع الله شيئاً فهذا منه في ذلك الوقت تخلي وتبري من حفظه ومراقبته، فيكلأه الله ويرعاه ويحفظه ، والله خير حفظاً"[(١)].

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في دعاء السفر عند ركوب الدابة " إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " ، ولو تأملنا سياق هذا الخبر لوجدنا أن تقدم عليه قول : الحمد لله ثلاث مرات ، وقول سبحانك مرة واحدة ، وكلها ثناء على الله وتنزيه، ثم جاء هذا الخبر، وفيه -كما نرى- اتهام للنفس واعتراف بالتقصير ، فما سر التوكيد فيه ؟.

هذا أسلوب كثر وروده في مواطن إظهار الضعف والمسكنة أمام عظمة الخالق، من ذلك قول موسى عليه السلام لما وكز الرجل وقضى عليه : " إني ظلمت نفسي فاغفر لي" ، وفي آدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة : " ربنا ظلمنا أنفسنا " وقول النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي قال له علمني دعاء أدعو به

(١) فيض القدير ٢/٥٠٦.

في صلاتي : قال : قل : "اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ... "[1].

وعلى هذا فيكون سر التوكيد في هذا التركيب هو بيان شدة الاعتراف بالضعف والتقصير، وظلم النفس "بملابسة ما يستوجب العقوبة، أو ينقص الحظ "[2]، ومناسبة ذلك للسفر لأنه مظنة الوقوع في الخطأ والزلل ، لذا كانت فيه عناية بالتوصية بحفظ الدين والأمانة وخواتيم العمل ، كما أن السفر مظنة إجابة الدعاء، فيكون فيه بيان لحرص الداعي لاستثمار فرصة السفر ليطلب من ربه غفران ذنوبه التي ظلم بها نفسه ، يقول المناوي : " فائدة الإقرار بالذنب أن الاعتراف يمحق الاقتراف " [3].

وقوله : " إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" فيه التوكيد بـ (إنَّ) وضمير الشأن، وأسلوب القصر، وسر التوكيد أنها جملة وقعت في موقع التعليل، فكأنه قيل : (لأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) ، ولأجل العناية بهذا السبب الذي فيه ثناء على الله جاء التوكيد في أوله، كما ورد على صيغة القصر لأنها الأقوى في التوكيد.

ويؤيد العناية بالدعاء في السفر لأنه مظنة الإجابة التوكيدُ في أكثر من موطن فيما يخص هذا الأمر ، ومن ذلك قوله ﷺ " اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى... " ، فالتوكيد هنا حاصل بـ (إنّ) وببناء الفعل على الضمير، أي بتقدم الفاعل المعنوي (نا) على خبره الفعلي (نسألك)، فكأنه قيل : (نحن نسألك)، وكان يمكن أن يقال : " اللهم نسألك "، دون تقدم الفاعل المعنوي، فمجيء التوكيد بهذين الطريقين ،دليل على شدة العناية بأمر هذا السؤال .

---

(١) صحيح البخاري ح(٧٩٩)، ١/٢٨٦.

(٢) فتح الباري ٢/٣٢٠.

(٣) فيض القدير ٤/١١٩.

ويؤيد هذا أن التوكيد جاء في هذا الدعاء العظيم الجامع في المواقع المفصلية التي تمثل جل اهتمامات المسافر وهي : " اللهم إنا نسألك في سفرنا البر والتقوى " ، " اللهم أنت الصاحب في السفر " ، "اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر " .

فهذه القضايا الثلاثة : - السؤال ، والصحبة ، والاستعاذة من منغصات السفر وصعوباته ، - هي أس اهتمامات المسافر لذا دلل على تلك العناية بها بتأكيدها على صور مختلفة فجاءت (إن) في موضعين : (إنا نسألك ، إني أعوذ بك) ، وجاء التوكيد بتقديم الفاعل المعنوي في المواضع الثلاثة جميعاً فهي في معنى : " نحن نسألك ، أنا أعوذ بك ، أنت الصاحب " ، ومصدر التوكيد في هذا النمط من التركيب هو في تكرار الإسناد ، إسناد الفعل أو المشتق مرة للمبتدأ ومرة للفاعل ، وقد سبق بيان دلالته في الحديث عن التقديم .

ولعل سؤالاً يرد عن سر خلو الصحبة في السفر من التوكيد بـ (إنّ) فلم يكن التعبير (اللهم إنك أنت الصاحب في السفر) لتتوافق الأساليب الثلاثة في نظمها ؟

لقد تتبعت – حسب الاستطاعة – هذا التركيب فوجدته لم يرد إلا بهذا النظم دون التوكيد بـ (إنّ) ، وبهذا ندرك أن العناية فيه متوجهة إلى المخاطب وهو الله سبحانه وتعالى ، المدلول عليه بالضمير المنفصل (أنت) ، بينما ما سبقه كان الضمير فيها للمتكلم ، كما نجد هنا أكثر من صورة للتوكيد تمثلت في : تقدم الفاعل على خبره الفعلي وهذا يقتضي القصر أحيانا ،[1] ، كما أن تعريف الجزأين (أنت الصاحب) يعطي توكيداً آخراً لأنه قد يدل على القصر ، أي أنت الصاحب لا غيرك ، ثم إن المطلوب هنا شامل للمتكلم ، ولمن وراءه من أهله (أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل) ، وهذا الخبر تضمن دعاء لطيفا فكأنه قيل : فاصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا ، وقد ظهر هذا الدعاء في روايات أخرى

---

(١) انظر الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني ، (دار إحياء العلوم – بيروت ، ط ٤ ، ١٩٩٨م) ١/ ٦٣.

كما عند الترمذي من قوله ﷺ : " اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا "[1]

ويستفاد من هذا كله أن صحبة الله للمسافر من أعظم نعم الله على الإنسان لذا وجب عليه طلبها ، ولهذا نجد التنصيص على السفر بقوله (في السفر) ، وأن خلافته سبحانه في أهل المسافر هي أيضاً من أجل النعم ، لهذا كله جاء النظم على هذه الصورة المظهرة للمخاطَب المبرزة لشأنه، المعظمة لقدره ، لشدة حاجة المسافر إليه.

يقول الباجي عند هذا المقطع : " يعني أنه لا يخلو مكان من أمره وحكمه، فيصحب المسافر في سفره بأن يسلمه ويرزقه ويعينه ويوفقه ويخلفه في أهله، بأن يرزقهم ويعصمهم فلا حكم لأحد في الأرض ولا في السماء غيره " [2].

ثانيا: الإنشاء :

"الإنشاء ضربان طلب وغير طلب، والطلب: يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب لامتناع تحصيل الحاصل، وهو المقصود بالنظر ههنا وأنواعه كثيرة"[3] ومما ورد من هذه الأنواع هنا : النداء، والأمر، و النهي.

أ- النداء :

لعل أظهر صور الإنشاء في أحاديث السفر النداء، وذلك لأن أغلب ما ورد في جانب الدعاء ومن ذلك قوله ﷺ : " اللهم اطو له البعد ، وهون عليه السفر " ،

(١) سبق تخريجه وورد بهذا اللفظ في سنن الترمذي ح(٣٤٣٩)، ٤٣٨/٥ ، قال الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي : صحيح .

(٢) تنوير الحوالك ، شرح على موطأ مالك، السيوطي، دار الندوة الجديدة، بيروت ، ط بدون)١٤٣/٣ ولعل الصحيح : ولا في السماء لغيره .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، ١ / ١٣٠ .

"اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى .." ، " اللهم هون علينا ..." ، " اللهم إني أعوذ بك...".

نلحظ هنا كثرة ورود صيغة (اللهم) ، وفيها (ياء) نداء محذوفة ، وقد سبق الحديث عن دلالة هذه اللفظة في مبحث الحذف ، ونزيد هنا قول ابن حجر : " (اللهم) كلمة كثر استعمالها في الدعاء ، وهي بمعنى يا الله ...واختص هذا الاسم بقطع الهمزة عند النداء ووجوب تفخيم لامه وبدخول حرف النداء عليه مع التعريف ...وقد جاء عن الحسن البصري اللهم مجتمع الدعاء وعن النضر بن شميل من قال (اللهم) فقد سأل الله بجميع أسمائه " [(١)] .

ويرى الكرماني أن في ذكر هذا اللفظ (اللهم) ما يشعر بالتبرك أحياناً وأنها على أقسام فقد قال عن " اللهم نعم " – " والجواب هو نعم ، وذكر لفظ اللهم للتبرك وكأنه استشهد بالله في ذلك تأكيداً لصدقه ، قلت : (اللهم) تستعمل على ثلاثة أنحاء الأول للنداء المحض ، وهو ظاهر ، والثاني للإيذان بندرة المستثنى كما يقال : اللهم إلا أن يكون كذا ، والثالث التدليل على تيقن المجيب في الجواب المقترن هو به كقولك لمن قال : أزيد قائم؟ اللهم نعم ، أو اللهم لا ، كأنه يناديه تعالى مستشهداً على ما قاله من الجواب " [(٢)] .

وبهذا ندرك قوة دلالة هذه اللفظة على النداء، وفي تكريرها هنا إشارة إلى عظم شأنها في الدعاء، ففي دعاء الركوب تكررت أكثر من مرة إظهاراً لتكرار النداء المشعر بضعف الداعي وحاجته للمدعو ، وقد أشار العيني إلى هذا المعنى في حديثه عن دعاء الرفع من الصلاة : " اللهم ربنا " ، حيث يقول : " قوله : اللهم

(١) فتح الباري ١١/١٥٥.

(٢) عمدة القارئ ٢/٢١.

ربنا ، هكذا هو في أكثر الروايات وفي بعضها بحذف اللهم ، والأولى أولى ؛ لأن فيها تكرير النداء كأنه قال ياالله ياربنا " [١].

والمطلوبات بعد هذا النداء هي : طي البعد ، وتهوين السفر ، وسؤال البر والتقوى ، والاستعاذة من وعثاء السفر .. ، ويلحظ في هذه القضايا شدة حاجة المسافر إليها .

أ- الأمر :

للأمر صيغ متعددة ، أهمها أربعة : فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعله ، والمضارع المقترن بلام الأمر ، واسم فعل الأمر ، والأصل في الأمر أنه للوجوب ، ويكون كذلك إذا كان من الأعلى إلى الأدنى ، كأن يكون من الخالق للمخلوق ، أو من الرئيس للمرؤوس ، ويخرج الأمر أحياناً عن هذا المعنى الأصلي المقتضي للتنفيذ الفوري إلى معانٍ أخرى ، يدل عليها السياق ومقتضى الحال ، يقول الخطيب القزويني عن هذا الأمر : " ومن أنواع الإنشاء الأمر ، والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام نحو ليحضر زيد ، وغيرها نحو أكرم عمرا ، ورويد بكرا ، موضوعة لطلب الفعل استعلاء ، لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك ، وتوقف ما سواه على القرينة"[٢].

ومن شواهد الأمر في الأحاديث المدروسة ما يأتي :

فعل الأمر في قوله ﷺ : " فاغفر لي " و " اطو له البعد ، وهون عليه السفر " " اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطْوِ عنا بعده" و " ازْو لنا الأرض " ، والمصدر النائب عن فعله : في قوله ﷺ : " توباً ، توباً " أي تب ، توباً ، وفعل الأمر المقترن

(١) عمدة القارئ ٦/٧١.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ١ / ١٤١.

بلام الأمر في قوله ﷺ: "إذا قضى أحدكم نهمته فليعجل" ، واسم فعل الأمر في قوله ﷺ: "عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل".

ولو تأملنا هذه الصيغ لوجدناها بعمومها قد خرجت عن المعنى الأصلي للأمر المقتضي لتنفيذ الفعل على وجه الاستعلاء، وذلك أنها صدرت من المخلوق، وخوطب بها الخالق القادر سبحانه، على سبيل الدعاء، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " فاغفر لي " فهذا فعل دعاء جاء على صورة الأمر ، ومصدره من المخلوق ، فليس المراد قطعاً هو الأمر الحقيقي لتعذر ذلك ، وإنما هو دعاء وهو مظهر ضعف واستكانة وهذا من أعجب دلالات اللغة ، فالفعل الواحد قد يكون من أبرز مظاهر القوة ، وفي موقع آخر يكون هو ذاته من أبرز مظاهر الضعف والمسكنة (الدعاء) .

ومثله كل الأفعال الأخرى : (تب) (اطو) (هون) (ازو) ، لأنها من المخلوق للخالق ، وما يمكن أن يلحظ هنا أن ما جاء من المعاني على صورة الأمر في أحاديث السفر كان في القضايا الآتية :(التوبة ، الغفران ، طي البعد ، تهوين السفر ، زوي الأرض) وهذه القضايا هي مطلوبات المسافر وهي – كما نرى – قسمان :قسم يتعلق بالسفر ومشقته ، وقسم يتعلق بالذنوب والخطايا، وهذا يعني أن على المسافر أن يعتني بالأمرين جميعاً ، فلا ينشغل بما يسهل سفره ،ويغفل عن طلب المغفرة والتوبة، ولا العكس.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم (فليعجل)، فهو أمر يحتمل الوجوب ، فيكون قد جاء على الدلالة الأصلية للأمر، ولهذا يقول ابن عبد البر:" وفي هذا الحديث دليل على أن طول التغرب عن الأهل لغير حاجة وكيدة من دين أو دنيا، لا يصلح ولا يجوز، وأن من انقضت حاجته لزمه الاستعجال إلى أهله الذين

يمونهم و يقوتهم، مخافة مايحدثه الله بعده فيهم "[1]، ويمكن أن يكون من قبيل الحث والحض والإرشاد للأفضل، وقد جاء هذا اللفظ في روايات عدة بألفاظ مختلفة : " فليعجل إلى أهله " ، " فليعجل الرجوع إلى أهله " ، " فليعجل الكرة إلى أهله " " فليعجل الرحلة إلى أهله فإنه أعظم لأجره " .

وكل هذه الروايات التي أشار إليها ابن حجر في الفتح [2] تدل على العناية بأمر الرجوع إلى الأهل ، ولعل أمر الحث والترغيب ظاهر في الرواية الأخيرة: " فإنه أعظم لأجره "، وابن حجر يرى " كراهة التغرب عن الأهل لغير حاجة، واستحباب استعجال الرجوع لا سيما من يخشى عليهم الضيعة بالغيبة ، ولما في الإقامة في الأهل من الراحة المعينة على صلاح الدين والدنيا ، ولما في الإقامة من تحصيل الجماعات والقوة على العبادة ..." [3]، ونص المناوي على دلالة الأمر على الندب بقوله عن معنى الفعل المذكور: " أي: فليسرع ندبا"[4].

ونلحظ أن كل الصور جاءت بصيغة المضارع المقترن بـ(لام الأمر)، ولم تكن بالأمر المباشر (اعجلوا) أو (استعجلوا) أو (عجّلوا)، وقد يكون تفسير ذلك عائدا إلى ما في لام الأمر من دلالة الأمر ، والمضارع من دلالة التجدد، وهو يتناسب مع تجدد السفر، وتعلق الأمر بقضاء الوطر من السفر، فمتى حصل ذلك تجدد الأمر بالتعجل.

---

(١) التمهيد، ابن عبد البر، تحقيق : مصطفى العدوي، ومحمد البكري(منشورات وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط بدون) ٣٦/٢٢.

(٢) ٦٢٣/٣ .

(٣) فتح الباري ٦٢٣/٣.

(٤)فيض القدير ١ /٤١٨ ، قوله هذا عن حديث: "إذا قضى أحدكم حجه فليعجِّل إلى أهله فإنه أعظم لأجره"(صحيح) .

إضافة إلى أن السياق الذي ورد فيه هذا التوجيه، هو سياق الغياب لا الخطاب، كما ينبئ عنه لفظ (أحدكم)؛ لأن الظاهر من قبيل الغيبة، وإنما أوثر على الخطاب ليكون التوجيه أوسع مجالا، ولا يقال في مثل هذا: تعجلوا بالخطاب؛ "لأن الغائب لا يؤمر بصيغة الأمر، بل يؤمر بواسطة لام الأمر"(١).

ومن الأمر قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا سافرتم في الخصب فاعطوا الإبل حظها ، وإذا سافرتم بالسنة فبادروا بها نقيها، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق ".

جاء في هذا الحديث ثلاثة أفعال بصيغة فعل الأمر (أعطوا ، بادروا ، اجتنبوا) وجاء معها في بعض الروايات اسم فعل الأمر(عليكم)، في قوله صلى الله عليه وسلم :"وعليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل"، والمقصود بكل هذه الصور من الأمر الإرشاد إلى ما ينبغي في حق هذه العجماوات بحسب الحال ، من ضعفها أو قوتها، وخصب الأرض من عدمه، يقول المناوي: " وفيه حث على الرفق بالدواب، ورعاية مصلحتها، وحفظ المال، وصيانة الروح، والتحذير من المواضع التي هي مظنة الضرر والأذى، ويكره النزول بالطريق نهارا أيضا، وخص الليل لأنه أشد كراهة"(٢).

وكما نلحظ فقد جاءت هذه الحقوق والآداب بصيغة الأمر ، لا بصيغة النهي، لأن المراد القيام بأمر محدد لم يعرف أو يُؤلف، لا الانتهاء عن أمر قد وقعوا فيه ، فلم يكن الأسلوب : لا تعرسوا على الطريق ، ولا تبطئوا على الإبل ، ولا تنقصوها حقها، لأن هذا يصلح لو كانوا قد وقعوا في أمر منهي عنه.

وقد ورد الدعاء في صورة خبر، في قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي

---

(١) التحرير والتنوير ١ / ١٢١٩.

(٢) فيض القدير ١ / ٣٧٠.

استزاده : "زودك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ويسر لك الخير حيث ما كنت " ، يقول العيني : " قوله : (زودك الله التقوى) دعاء في صورة الإخبار ، معناه اللهم زوده التقوى ، وكذلك التقدير في وغفر ذنبك ، ويسر لك الخير " [1].

وكأن في إخراج الدعاء في صورة الخبر نوع من الاهتمام بأمره ، فهو لا يسأل له ، بل يخبره عن حاله وشأنه بما يسر نفسه ، وذلك أن الدعاء(الإنشاء)طلب لم يحدث بعد ، بينما الخبر أمر حاصل ، وبهذا يكون هذا الأمر المدعو به وهو التزود بالتقوي ، والغفران ، وتيسير الخير ، كأنه قد حصل لهذا الرجل ، بدليل أنه يخبر به خبرا ، ولا يطلب له طلبا.

ب- النهي :

للنهي صيغة واحدة هي : المضارع المسبوق بـ(لا) الناهية ، ومما ورد من هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً " ، وفي رواية " لا يطرقن أحدكم أهله ليلاً "[2] ، وفي رواية "فلا يطرقن أهله طروقاً "[3].

والمفهوم من كلام المناوي أن النهي للكراهة ، وذلك في قوله : "والنهي لمن فاجأ قبل ذلك ، وأفهم تقييده بالطول ، أنه لو قرب سفره بحيث تتوقع حليلته إتيانه فتتأهب ، فإنه لا يكره"[4] ، ويقول ابن حجر : "التقييد فيه بطول الغيبة يشير إلى أن علة النهي إنما توجد حينئذ ، فالحكم يدور مع علته وجودا وعدما ، فلما كان الذي يخرج لحاجته مثلا نهارا ويرجع ليلا ، لا يتأتى له ما يحذر من الذي يطيل الغيبة ،

---

(١) العلم الهيب ٤٣٣.

(٢) المسند ح(١٥٢٤٠) ، ٣٩١/٣ ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين.

(٣) المسند ح(١٥٣٢٠) ٣٩٩/٣ ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح.

(٤) فيض القدير ٢٨٨/١.

كان طول الغيبة مظنة الأمن من الهجوم، فيقع الذي يهجم بعد طول الغيبة غالبا على ما يكره، إما أن يجد أهله على غير أهبة من التنظف والتزين المطلوب من المرأة، فيكون ذلك سبب النفرة بينهما، وقد أشار إلى ذلك بقوله: ... كي تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة، ويؤخذ منه كراهة مباشرة المرأة في الحالة التي تكون فيها غير متنظفة، لئلا يطلع منها على ما يكون سببا لنفرته منها، وإما أن يجدها على حالة غير مرضية، والشرع محرض على الستر، وقد أشار إلى ذلك بقوله: أن يتخونهم ويتطلب عثراتهم، فعلى هذا من أعلم أهله بوصوله وأنه يقدم في وقت كذا مثلا، لا يتناوله هذا النهي"[(١)]، وبهذا ندرك أن مجيء معنى النهي هنا خرج إلى الكراهة، وإنما جيء في هذا الأمر بالنهي عن الطروق، دون الأمر بضده؛ لأن المراد هو التحذير من أمر محدد.

ومما يمكن أن يذكر هنا مجيء النهي بأسلوب الخبر، وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: "الراكب شيطان والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب"، حيث يدل التشبيه بالشيطان على التنفير من هذا الفعل[(٢)]، وهذا يؤول إلى النهي عنه، والنهي بمثل هذا الأسلوب الخبري أقوى وأكثر أثرا، لأنه يصبح بمثابة أمر وقع يخبر عنه، وهذا الإخبار ذم للصورة التي وقع عليها، فيكون تأثير ذلك في انصراف المخاطب عن هذا الفعل أقوى[(٣)].

وبالتأمل نجد قلة في ورود صيغ النهي في أحاديث السفر، في مقابل كثرة في صيغ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٩ / ٣٤٠.

(٢) وسيأتي بيان ذلك مفصلا في الحديث عن التصوير بالتشبيه.

(٣) انظر إشارة إلى مثل هذا عند الخطيب في حديثة عن الفصل والوصل، حيث ذكر أن قوله تعالى(لا تعبدون إلا الله) بمعنى لا تعبدوا، وبين أنه أبلغ من النهي الصريح. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٥٤.

الأمر، وسبب ذلك أن جل ما ورد على صيغة الأمر كان المراد منه الدعاء، وهذا يشعر بأهمية أمر الدعاء في السفر، يضاف إلى ذلك طبيعة السفر الشاقة، وما يناسبها من التخفيف، والنهي منع ، وهو ثقيل بخلاف الأمر ، فهو طلب فعل، وكثيرا ما يكون في منفعة المأمور.

* * *

المبحث الثالث: التصوير:

للتصوير أثره في قوة المعنى ، وتأثيره في النفس ، وللتصوير أدوات كثيرة تسهم في رسم المشهد ، ومن ذلك : الجرس والمجاز والتشبيه والكناية، وسنقف مع أبرز هذه الدلالات.

المطلب الأول: التصوير بالجرس :

تسهم أصوات الكلمة بجرسها ، وتجاورها مع أخواتها، ، إضافة إلى الحركات والسكنات التي تصحبها في رسم الصورة ، وإيضاح المدلول، وقد قدمنا شيئا من ذلك في الحديث عن دلالة الصيغة، وسنقف هنا مع عدد من الكلمات ذات الجرس الموحي، ومن ذلك هذه الكلمات المعبرة (وعثاء، وكآبة)، الواردة في قوله ﷺ : " اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر "، فكلمة (وعثاء) صورت بحروفها وما أحدثه تجاورها من – لون صوتي معين- ما يلاقيه المسافر من مشقة السفر ، ويظهر ذلك إذا عرفنا معنى الوعثاء، يقول ابن عبد البر : " وعثاء السفر شدته وسخونته "[1]، والوعث هو الصعب المرتقى بحيث توحل فيه الأقدام فيشق فيه المشي[2]، " والوعث هو الرمل ، والمشي فيه يشتد على صاحبه ويشق "[3]، فهذه المشقة والخشونة في الرمل والمرتقى ترسمها باقتدار هذه الأصوات المجهدة في نطقها (العين ، الهمزة)، كما أن (العين) بما فيها احتكاك شديد في الحلق خير ما يصور تلك الخشونة .

والهمزة بإجهادها وعمق مخرجها ووقوعها في آخر الكلمة، توحي بذلك

(١) التمهيد ٢٤/ ٣٥٢.

(٢)انظر : فتح الباري ٢٥٩/٩.

(٣) تحفة الأحوذي ٢٨١/٩.

الجهد المضني والمشقة العظيمة التي يكابدها المسافر عادة.

وأما كلمة (كآبة) ، فإنها تعني " تغير النفس من حزن ونحوه "[(١)]، وكما وجدنا الهمزة بإجهادها في كلمة (وعثاء)، نجدها أيضا في كلمة (كآبة) لكنها هنا في وسط الكلمة، مع مد أعطى امتدادا لأثر الحزن والهم، ومع أن الكآبة لاتكون إلا في وجه الإنسان ، إلا أنها هنا وردت للمنظر، و للمنقلب على اختلاف الروايات، وما أدق هذه الكلمة، فكم من منظر في السفر ، أو منقلب تسبب في الحزن والكآبة والهم لكثير من المسافرين .

ونلحظ لطف الكلمة وقوتها في آن واحد في لفظة (هَوِّن) في قوله ﷺ: " هوِّن علنا سفرنا هذا "، فحروفها ذات الجرس الهادئ اللطيف ، توحي بالتيسير المطلوب ، وصيغة التفعيل (فعِّل) تشعر بالحرص على طلب ذلك التهوين ، ولعل هذا هو سر التعبير بالتهوين دون التخفيف مثلاً (خفف) ، لأن مادة (هان) تعني: سهل ، " وشيء هين على فيعل أي سهل "[(٢)] ، فناسب أن يقابل شدة السفر ومشقته بطلب التسهيل بهذه اللفظة ذات الحروف السهلة اللينة ، وقد لمح ابن القيم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾، حيث قال: "والهَون بفتح الهاء ... وهو مصدر هان هونا أي سهل ، وأما الهُون بالضم فهو الهوان، فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهون"[(٣)].

---

(١) شرح النووي ٩/١١١ .

(٢) انظر : لسان العرب مادة (هون) .

(٣) بدائع الفوائد، ابن القيم (ت ٧٥٧ هـ) ، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا، وآخرون، (مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م). ٢ / ٣٨٧.

ومن الجرس اللطيف المصور ما نجده في كلمة (نهمته) في قوله صلى الله عليه وسلم : " فإذا قضى أحدكم نهمته فليعجل إلى أهله ".

جاء في القاموس المحيط :" النَّهم محركة : إفراط الشهوة في الطعام .. والنهمة الحاجة وبلوغ الهمة والشهوة في الشيء ، وهو منهوم بكذا : مولع به "[1] ، وجاء في النهاية : " النهمة : بلوغ الهمة في الشيء "[2] ، والسؤال هنا ما مدى تصوير هذه الحروف اللطيفة ، وما صاحبها من حركات للمطلب والحاجة ، حيث لم يرد بدلاً عنها : (حاجته ، أو غرضه ، أو مطلبه) ؟.

للإجابة عن ذلك يمكن القول ، بأن النهمة – كما يظهر من المعاني السابقة – تدل على حرص الطالب لها وشغفه بها ، حتى أصبحت كأنها طعام يشتهيه، فلا يقر له قرار إلا بالتلذذ به ، وهذا يعني أن المطلب المراد في الحديث هو ما يهم الإنسان كأهمية الطعام للمنهوم ، وكأن هذه المادة (نهم) بحروفها تصور الذات والجمع ، لذا قيل بأن النون صوت رخيم معبر عن الذاتية والصميمية[3] ، والهاء بقرب مخرجها من النفس ، والميم بما فيها من دلالة الجمع بسبب انطباق الشفتين عند النطق بها، كل ذلك يصور جمع الشيء لإيصاله للنفس، تماما كما يفعل منهوم الطعام بالطعام، فمع نطق النون المفتوحة ينفتح الفم، ومع الهاء تظهر اللهفة والرغبة العميقة لتحصيل المطلوب، ثم تأتي الميم لتأكد الحيازة والجمع بإغلاق الشفتين، وذكر هذه المادة هنا يدل على أن الحاجة المطلوبة لا بد أن تكون

---

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، (مؤسسة الرسالة، بيروت)، مادة (نهم) .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٢٩٠/٥.

(٣)خصائص الحروف العربية ومعانيها ، حسن عباس ،(منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط بدون،١٩٩٨م). ، ص ١٦٠ .

مما يهم الإنسان وينشغل ذهنه به ، لا أن تكون من فضول الحاجات ، وإلا لم تكن نهمة ، وقد رأى المناوي في التعبير بهذه الكلمة إشعاراً بالتفريق في مطالب المسافرين بين مايعظم شأنه من أمور الآخرة ، وبين ماكان للدنيا ، فقال : "وعبر بالنهمة التي هي بلوغ الهمة إشعاراً بأن الكلام في سفر لأرب دنيوي كتجارة ، دون الواجب كحج وغزوه"(١) ، ولهذا كانت أسفار النبي ﷺ "دائرة بين أربعة أسفار : سفره لهجرته ، وسفره للجهاد ، وهو أكثرها ، وسفره للعمرة ، وسفره للحج"(٢).

ومن التصوير بالجرس ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم "حتى تمتشط الشعثة " فنلحظ كيف أسهمت صيغة الكلمة وكثرة حروفها في (تمتشط) في رسم عملية إصلاح الشعر الشعث . وكان لصيغة الافتعال (تفتعل) أثر في إظهار المشقة وقدر الجهد المبذول ، وإلا لقيل : تمشط ، وبهذا المعالجة الشاقة التي تصورها كلمة(تمتشط) لا تكتمل صورتها إلا ببيان شأن الشعر المعالج ، وهذا ماتنقله كلمة (الشعثة) بأصواتها حيث اجتمعت الشين بما فيها من التفشي والانتشار مع العين بحدتها ونصاعتها وقوتها ، واحتكاكها ، والثاء بما فيها من الرخاوة وخروج الهواء ، وكل ذلك يصور حالة المرأة الشعثة ، وهي التي تكون : " منتشرة الشعر مغبرة الرأس"(٣).

والتشعث يعني التفرق ، يقول ابن منظور : " والتشعث : التفرق والتنكث " (٤) ، وهو أيضاً الانتشار ، قال ابن منظور : " والشعث والشَّعث

(١) فيض القدير ١٤١/٤.

(٢)زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن القيم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت ، ط١٤ ، ١٤٠٧ - ١٩٨٦) ١ / ٤٤٤ .

(٣) عمدة القارئ ٧٦/٢٠.

(٤) لسان العرب مادة شعث .

انتشار الأمر وخلله "[1]، وقد نص صاحب التاج على مرد معاني التشعث إلى الانتشار والتفرق[2].

وبهذا تكون هذه الكلمة مصورة بجرس حروفها حال المرأة ، التي لا يحسن أن يراها عليها زوجها القادم من السفر، بل هو يريدها على أجمل صورة وأحسنها ، وهذه الكلمة – كما نراها – تصور الشعر خصوصاً مما يشعر بضرورة عناية المرأة بشعرها ، وبيان أنه مظهر جمال إن اعتني به ، وسبب نفره إن ترك حتى صار متشعثاً.

ونلحظ في كلمة (تستحد) كيف أسهمت الصيغة وكثرة الحروف في رسم المعنى ، فأفادت الكلمة – بسبب زيادة السين والتاء- بأن المرأة المغيبة ، أي التي غاب عنها زوجها تقصد إلى هذا الفعل وهو الاستحداد ؛ لأنه "ونحوه مما تتزين به المرأة ليس داخلا في النهي عن تغيير الخلقة."[3]، كما أن اللفظ ذاته رسم نوعية الفعل وهو استخدام الحديد لإزالة الشعر[4] ، يقول أبو عبيدة " وهو استفعال من الحديدة يعني الاستحلاق بها، استعمله على طريق الكناية والتورية "[5].

ودلالة هذه اللفظة على الحلق يبينه المطرزي بقوله : " وأما الاستحداد لحلق العانة فمشتق من الحديد ؛ لأنه يستعمل في ذلك ، وكأنه سمي حديداً لأنه منع

---

(١) لسان العرب مادة (شعث) .

(٢) انظر : تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي ، مادة (شعث) .

(٣) فتح الباري ٩ / ٣٤١ .

(٤) لسان العرب مادة(حدد) .

(٥) لسان العرب مادة حدد ، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٩٠٩، والفائق في غريب الحديث، للزمخشري، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م)١/٢٣٠.

نفسه بصلابته"[1]، وإنما جاء التعبير "بالاستحداد لأنه الغالب في استعماله في إزالة الشعر"[2].

وفوق ما أشرنا إليه من زيادة السين والتاء نلحظ كيف أسهمت حروف هذه الكلمة (تستحد) وأصواتها في إظهار حركة الموسى على الجلد، فهذه السين والحاء بما فيهما من صوت الصفير والحفيف، يشبهان صوت الموسى واحتكاكه بالجلد، ثم تأتي الدال الانفجارية لتصور نهاية تلك الحركة، وتساعد حركة الفتحة والكسرة على الإحساس بحركة الموسى صعودا وهبوطا.

وأما ما أشير إليه من الكناية هنا فإنه يظهر في أنه لم يقل : وتحلق المغيبة عانتها ، وهذا من التهذيب العظيم لاختيار الكلم ، يقول ابن حجر : " وفي التعبير بهذه اللفظة مشروعية الكناية مما يستحي منه إذا حصل الإفهام بها ، وأغنى عن التصريح "[3].

ومورد التورية هنا أنه ذكر كلمة (تستحد)، ولها معنيان، أحدهما قريب غير مقصود وهو استخدام الحديد عموما، وبعيد مقصود وهو حلق العانة خصوصا، وهذا التعبير من لطيف القول ومهذبه.

وبهذا ندرك كيف أدت هذه الكلمة كل تلك المعاني من خلال إيحاءات حروفها، ولطف دلالتها من خلال الكناية، والتورية.

---

(١) المغرب في ترتيب المعرب، للمطرزي، تحقيق : محمد فاخوري، وعبدالحميد مختار(مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط١، ١٩٧٩م) ١/ ١٨٧.

(٢) فتح الباري ٩/ ١٢٣.

(٣) فتح الباري ١٠/ ٣٤٣.

المطلب الثاني : التصوير بالاستعارة :

من ذلك قول النبي ﷺ : " اللهم اطو له الأرض " وقوله " اطو عنا بعده" ، وقوله " ازو لنا الأرض " ، وقوله "فإن الأرض تطوى بالليل" ، وقوله : " اللهم اقبض لنا الأرض"[1] .

فهذه تعبيرات عظيمة الدلالة ، جاءت فيها مادة (الطي) و (الزوي) و(القبض)، مع الأرض و(البعد)، لترسم صورة حسية لأمر معنوي قد نشعر بأثره لكننا لا نراه ولا نلمسه ، وهو من أهم ما يؤثر في شأن المسافر المشفق من عناء السفر ، فالمسافة هي أكثر ما يقلقه، وطيها من أكثر ما يسعده ويسره .

وللإنسان أن يتخيل ما في كلمة الطي من بقاء المطوي على ما كان عليه مع تقصير طوله وتصغير حجمه، فعندما نطوي بساطاً طوله عشرة أمتار مثلا ، فإنه لا يشكل بعد الطي نصف متر ، ومع هذا هو لم ينقص شيئاً لكنْ تقارب بعضه من بعض ، وكذلك الزوي ، يقول المناوي عن معنى تطوى : " أي ينزوي بعضها لبعض ويتداخل فيقطع المسافر من المسافة فيه[أي الليل] ما لا يقطعه نهاراً سيما آخر الليل ، الذي ما فعل فيه شيء إلا كانت البركة فيه أكثر ؛ لأنه الوقت الذي ينزل الله فيه إلى سماء الدنيا"[2]، ويقول المباكفوري : " والمعنى ارفع عنه مشقة السفر بتقريب المسافة البعيدة حساً أو معنى " [3].

والزوي مثل الطي ، ولهذا يفسر به ، وأصله الانضمام والانقباض ، والمقصود قربه وسهله [4]، وذكر الحربي في غريبه ، أن الزوي له معانٍ منها :

(١) مسند الإمام أحمد (٢٧٢٣) ، ١ / ٢٩٩ ، وقال شعيب الأرنؤوط : حسن.

(٢) فيض القدير ٤/ ٣٤٠.

(٣) تحفة الأحوذي ٩/ ٢٨٦.

(٤) انظر : التمهيد ٢٤/ ٣٥٢ .

التجمع والتقبض وهو المراد في أحاديث السفر[1] .

ونسبة ذلك إلى الأرض فيه تشبيه للأرض وللبعد بشيء يمكن طيه ليراه الرائي قصيراً ، ولعل المراد هو شعور المسافر بقصر المسافة ، وما يشير إلى ذلك هو التعبير عن المطوي مرة بالأرض ومرة بالبعد ، والبعد أمر معنوي لا يتصور طيه ، فأدركنا بذلك أن طي (الأرض) و(البعد) هو تصوير لشعور المسافر بقصر المسافة ، وهذا بخلاف لو قيل : أنْقِص أو اقطع ، أو ما شابه ذلك مما يشعر بذهاب جزء من المطوي .

وهذه النعمة والراحة التي يجدها المسافر ويفرح بها ، ربما لا تتحقق إلا للمؤمن اللاهج بهذا الذكر الموقن به ، لأن طي الأرض والبعد أمر بيد الله ، ليس للبشر فيه قدرة ولا طاقة.

وربما يؤيد كون المسافة في حقيقتها باقية وإنما هو شعور يوجده الله في قلوب المؤمنين رحمة بينهم ، أن الليل يحجب الرؤية وانطلاقها في الأفق البعيد مما يوحي بقرب المسافة ، قال المظهر : " يعني لا تقنعوا بالسير نهاراً ، بل سيروا بالليل أيضاً فإنه يسهل ، بحيث يظن الماشي أن سار قليلاً وقد سار كثيراً " [2] ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل " ، وقال : " فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار "[3].

---

(١) انظر : غريب الحديث ، للحربي ، تحقيق : د. سليمان العايد(مركز البحث العلمي وإحياء التراث ، جامعة أم القرى) ٩٧٤/٣.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ، للعظيم آبادي ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٥م) ١٧١/٧.

(٣) هذا اللفظ في المعجم الكبير، الطبراني ، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، (مكتبة العلوم والحكم – الموصل ، ط٣ ، ١٤٠٤ – ١٩٨٣) ، وقال الألباني في صحيح الجامع : صحيح .

يقول ابن عبد البر في التمهيد : " وأما قوله (فإن الأرض تطوي بالليل فمعناه – والله أعلم – أن الدابة بالليل أقوى على المشي إذا كانت نالت قوتها واستراحت نهارها تضاعف مشيها ، ولهذا ندب إلى سير الليل والله أعلم بما أراد لا شريك له) "[1].

وقد استدل ابن حجر بحديث الإسراء على فضل سير الليل ، وأن أكثر سفره صلى الله عليه وسلم كان بالليل[2].

ولعل من التصوير بالاستعارة ما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم " لا يطرقن أحدكم أهله ليلاً " ، وأصل الطرق أن يكون للباب أو الطريق ، أو هو لحالة تشعر بالسكون ، يقول ابن حجر : " وقال بعض أهل اللغة أصل الطروق الدفع والضرب وبذلك سميت الطريق ؛ لأن المارة تدقها بأرجلها ، وسمي الآتي بالليل طارقاً ؛ لأنه يحتاج غالباً إلى دق الباب ، وقيل أصل الطروق السكون ومنه أطرق رأسه ، فلما كان الليل يسكن فيه سمي الآتي فيه طارقاً " [3] ، وأظن أن المعنى الأخير خارج عن الدلالة لأنه من (أطرق) الرباعي ولا يسمى صاحبه طارقاً ، بل مطرقاً .

وجاء في تاج العروس : " الطرق : الضرب ، هذا هو الأصل " [4] ، وبهذا ندرك أن الطرق في أصله لما يصلح أن يطرق من باب أو طريق ونحوه ، فإسناده إلى الأهل (يطرق أهله) استعارة ، حيث شبه الأهل بما يطرق أي يُعتاد المجيء إليه ،

---

(١) التمهيد، ١٥٧/٢٤.

(٢) فتح الباري ٢١٨/٧.

(٣) فتح الباري ٣٤٠/٩.

(٤) تاج العروس مادة طرق .

وقد يكون على تقدير مضاف (يطرق باب أهله) ، ولعله يؤيد هذا قول المناوي عن الطرق : " وهو الدق ، سمي الآتي بالليل طارقاً لحاجته إلى دق الباب ، قالوا ولا يقال في النهار إلا مجازاً ، فقوله : ليلاً ، للتأكيد ، لدفع المجاز في استعمال الطرق في النهار " [1] .

المطلب الثالث : التصوير بالتشبيه :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : "السفر قطعة من العذاب" في هذا النص النبوي تصوير عجيب لشأن السفر ، أداة التشبيه فيه محذوفة ، والمراد كالقطعة من العذاب.

ومن عجيب شأن هذا التشبيه أن المشبه وهو (السفر) ليس مرادا لذاته بل المشقة التي فيه ، وفى المقابل يجيء المشبه به (القطعة) ، وهو أمر محسوس لكن هذه القطعة كانت من شيء معنوي أيضاً وهو العذاب ، وبهذا ندرك أن كلمة قطعة هى الرابط بين أجزاء التشبيه ، فالسفر ليس عذابا ، بل هو قطعة منه ، وليس السفر كله كذلك بل هو جانب المشقة منه ، وبهذا ندرك سر ذكر القطعة دون أن يقال : السفر عذاب.

يقول العيني : " والمراد بالعذاب : الألم الناشئ عن المشقة" [2] ، ويعدد النووي الصور التي تجعل السفر كالعذاب وهي : " المشقة ، ومقاساة الحر والبرد ، والسرى ، والخوف ، ومفارقة الأهل والأصحاب وخشونة العيش " [3] .

ويتضح مما أورده النووي رحمه الله أن تلك الصور بعضها حسي وبعضها

---

(١) فيض القدير ١/ ٢٨٨.

(٢) عمدة القارئ ١٠/ ١٣٨.

(٣) شرح النووي على مسلم ١٣/ ٧٠.

معنوي وكل ذلك من جوانب العذاب.

ولأجل هذا الأمر فقد جاءت الشريعة بالتخفيف من التكليف فى السفر قال صلى الله عليه وسلم: " إن الله وضع عن المسافر الصوم، وشطر الصلاة"[١] يقول المناوي: " والسفر قطعة من العذاب فخفف عنه[أي المسافر] لئلا يجتمع على العبد كلفتان فتتضاعف عليه المشقة دينا ودنيا..." [٢].

وسر ذكر العذاب دون المشقة أو العقاب مثلاً ، أن العذاب فى أصل " كلام العرب: الضرب، ثم استعمل في كل عقوبة مؤلمة ، واستعير للأمور الشاقة فقيل: السفر قطعة من العذاب"[٣]، وقال المناوي: "فإن قلت لم عبر بالعذاب دون العقاب؟ قلت: لكون العذاب أعم، إذ العذاب الألم كما تقرر، وليس كل مؤلم يكون عقابا على ذنب"[٤].

وبهذا ندرك أن السفر شبه بقطعة من العذاب بجامع الإيلام والمشقة في كل ، وفي ذكر هذه الكلمة (قطعة) مع العذاب ما يشعر بالقلة والجزئية ، وما يشعر بالحسية أيضاً، وذلك أكثر في الشعور والإحساس بأثر الصورة.

ومن التشبيه قوله صلى الله عليه وسلم : " الراكب شيطان والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب" ، والمقصود هنا بالراكب المسافر كما في رواية الحاكم أن رجلاً قدم من سفر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صحبت؟

---

(١) سنن الترمذي ح(٧١٥)، ٩٤/٣.

(٢) فيض القدير ٢٦٧/٢.

(٣)المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي، (المطبعة الأميرية بالقاهرة، ط بدون، ١٩٢٦م) مادة (عذب) .

(٤)فيض القدير / ١٤٠ .

فقال: ما صحبت أحداً، فقال صلى الله عليه وسلم: الراكب شيطان..." الحديث، وأداة الصورة هنا التشبيه وهو مما حمل عليه معنى الحديث، يقول ابن حجر " وقيل في تفسير قوله : الراكب شيطان: أي سفره وحده يحمله عليه الشيطان، أو أشبه الشيطان في فعله" [1]، وعند تحليل عناصر الصورة هنا نجد أن الطرف الأول فيها وهو المشبه هو الراكب دون الراجل مثلاً ؟

وفي هذا يقول ابن عبد البر : " إن هذا من التغليب وأن الراجل يدخل في معنى الراكب إذا كان وحده " [2]، والطرف الثاني وهو المشبه به هو (شيطان) و(شيطانان)، والتشبيه بالشيطان وجعله عين المشبه وهو الراكب المنفرد بدلالة حذف أداة التشبيه للإشعار بشدة الشبه حتى كأنه عينه، وفي هذا من تبشيع هذا الأمر ما لايخفى، والمراد تنفير المسلمين من هذا السلوك، لكراهيتهم لكل ماله علاقة بالشيطان، فيكيف إذا كان هو الشيطان نفسه كما يشعر به سقوط أداة التشبيه.

وقيل بأن معنى شيطان أي: عاص [3]، وقيل: بل المراد أن الشيطان يحمله على سفره ذاك، كما ذكر ابن حجر ذلك سابقاً، وبهذا يخرج الكلام عن التشبيه، ولكن إذا أدركنا أن المراد هو الزجر عن هذه الحالة، كان أليق أن يحمل الكلام على التشبيه، لما فى النفوس من النفرة من الشيطان وأعماله وتسويلاته، ومن يرضى أن يكون مثله، لذا نجد العيني يذكر التشبيه بوضوح ووجه الشبه أيضاً فيقول : " إن الذي يسافر وحده لا يأنس بأحد، ولا يقطع طريقه بمحدث يهون عليه مؤونة السفر، كالشيطان الذي لا يأنس بأحد، ويطلب الوحدة ليغويه"[4].

---

(١) فتح الباري ٥٣/٦.

(٢) انظر : التمهيد ٦/٢٠ .

(٣) انظر : فتح الباري ٥٣/٦.

(٤) عمدة القاري ١٤٢/١٤.

والتشبيه وما يحمل من صورة مجسدة أقوى في التنفير ، وينضوي تحته معنى العصيان ، لما تقتضيه المشابهة من المقاربة والتآلف ، ولعل بعض هذا يظهر في كلام المظهر حيث يقول : "يعني مشي الواحد منفرداً منهي عنه ، وكذلك مشي الاثنين ، ومن ارتكب منهياً فقد أطاع الشيطان ومن أطاعه فكأنه هو ، ولذا أطلق صلى الله عليه وسلم اسمه عليه" [1] ، ورأى المناوي أن وجه الشبه هو الوحدة ، حيث يُطمع فى الواحد " بمعنى أن الشيطان يطمع فى الواحد كما يطمع فيه اللص والسبع ، فإذا خرج وحده فقد تعرض للشيطان والسبع واللص فكأنه شيطان" [2] ، ولا يظهر لي التشبيه على ما ذكره المناوي ، بل إن التشبيه يبعد المعنى الذي أورده ، ولكن صورة التشبيه تستقيم فيما أرى إذا أريد مجرد التنفير من الفعل ، فيشبه صاحبه بالشيطان لأجل تشنيع ذلك الفعل ، أو أن الواحد يشبه الشيطان في التوحد ، من دون أن يكون ذلك هو الدليل على الطمع لأن المعنيين متباينان.

* * *

(١) تحفة الأحوذي ٥/٢٦٠.

(٢) فيض القدير ٤/٤٤٣.

الخاتمة :

سعى هذا البحث للإجابة على سؤال هو : ما أبرز ملامح البلاغية النبوية في أحاديث السفر؟

وقد تمت دراسة هذه الأحاديث من الوجهة البلاغية باتباع المنهج التحليلي من خلال مستويات ثلاثة هي : الكلمة المفردة، والتركيب، والتصوير، وتوصلت إلى إبراز أهم صور البيان النبوي في أحاديث السفر.

وقد درستُ الكلمة من خلال : الصيغة ، والتنكير والتعريف، وظهر من خلال ذلك:

١- بروز أثر صيغة الكلمة في بيان المعنى ، كصيغة : (الفَعَلان، والتفعيل، والتفعُّل).

٢- حضور الجمع في كلمات الأحاديث بما يقارب الثلث مما يوحي بالعناية بشأن الجماعة في السفر .

٣- تنوع صور التعريف فوجدنا ما كان بـ(أل)، والإضافة، والموصول، والإشارة.

ودرستُ التركيب من خلال : التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، والخبر والإنشاء، واتضح ما يأتي:

١- تنوع صور التقديم، فهناك التقديم في الإسناد، وأظهره تقديم الفاعل المعنوي على خبره الفعلي، كما وجد التقديم في غير الإسناد.

٢- وضوح أثر التقديم في تأكيد المعنى من خلال تكرار الإسناد، أو القصر، أو لفت النظر لأهمية المقدم.

٣- ظهور الإيجاز بقسميه (الحذف ، والقصر)، وإن كان (القصر) أظهر مما يدل على فضيلة الإيجاز، وتأكيد سمة جمع الكلم في كلامه ﷺ.

٤- وجود صور من الإطناب مثل: التقسيم، والتكرار.

٥- كثرة صور التوكيد مما يؤكد العناية بمضمون النص لأنه- في غالبه- وصايا وأدعية.

٦- كان النداء هو أكثر صور الإنشاء الطلبي وروداً ، وهذا يتناسب مع كثرة الدعاء في السفر ثم يأتي بعده الأمر لمناسبته للوصايا والتوجيهات .

٧- كثرة صور التوكيد مما يؤكد العناية بمضمون النص لأنه- في غالبه- وصايا وأدعية.

ودرستُ التصوير من خلال : الجرس ، والاستعارة ، والتشبيه ، فظهر ما يأتي:

١- إسهام الصوت من حيث نوعه وما يتصل به من الحركات والمدود في توجيه المعنى.

٢- ظهر التصوير بالاستعارة جليا مع طي الأرض والبعد، والطروق، بينما ظهر التشبيه في التنفير من سفر الواحد والاثنين، وفي بيان مشقة السفر.

* * *

فهرس المصادر و المراجع:

١- **أحكام السفر وآدابه** ، دراسة مقارنة د. محمود حسين الحريري ، (دار عمار ، عمان ن ط (١)، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٦ م).

٢- **الإيضاح في علوم البلاغة**، القزويني، (دار إحياء العلوم – بيروت، ط٤، ١٩٩٨م).

٣- **بدائع الفوائد**، ابن القيم (ت ٧٥٧ هـ) ، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا، وآخرين، (مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)..

٤- **البيان والتبيين**، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون(مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٧٥م) .

٥- **تاج العروس من جواهر القاموس**، للزبيدي .

٦- **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، الدار الجماهيرية.

٧- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، المباركفوري(دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م).

٨- **التمهيد**، ابن عبد البر، تحقيق : مصطفى العدوي، ومحمد البكري(منشورات وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط بدون).

٩- **تنوير الحوالك** ، شرح على موطأ مالك، السيوطي، دار الندوة الجديدة، بيروت ، ط بدون)٣ .

١٠- **الحديث النبوي الشريف** ، وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ، د. محمد ضاري حمادي ، (مؤسسة المطبوعات العربية ، دمشق ، بيروت ، ط (١) ن ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢م) .

١١- **خصائص الحروف العربية ومعانيها** ، حسن عباس ، (منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط بدون،١٩٩٨م).

١٢- **دلائل الإعجاز**، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق : د.محمد التونجي ، (دار الكتاب العربي – بيروت، ط١ ، ١٩٩٥م) .

١٣- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن القيم، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت – الكويت، ط١٤ ، ١٤٠٧ – ١٩٨٦) .

١٤- **زكي الأرسوزي ودور اللسان في بناء الإنسان**، خليل أحمد ، (دار الشبيبة ،مؤسسة الوحدة،

ط بدون، ١٩٧٨م)

١٥- **سنن ابن ماجه**، لابن ماجه، (دار الجيل، بيروت، ط١ ، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م)

١٦- **سنن الترمذي** ، الترمذي، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرين، (دار إحياء التراث العربي – بيروت) .

١٧- **سنن الترمذي**، للترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، (دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٨م)

١٨- **شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** ، النووي ، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ)

١٩- **صحيح ابن حبان**، لابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م)

٢٠- **صحيح البخاري**، البخاري (دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م).

٢١- **صحيح سنن أبي داوود**، (مكتبة المعارف الرياض، ط بدون، ١٤٢١هـ، ١٩٩٥م)

٢٢- **صحيح مسلم**، للإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (دار إحياء التراث العربي بيروت، ط بدون) ح (١٣٤٢) .

٢٣- **عمدة القاري في شرح صحيح البخاري** .

٢٤- **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، للعظيم آبادي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م)

٢٥- **غريب الحديث** ، لابن سلام ، تحقيق : د . محمد عبد المعيد خان (دار الكتاب العربي ، بيروت، ط (١) ، ١٣٩٦ هـ) .

٢٦- **غريب الحديث**، للحربي، تحقيق: د. سليمان العايد(مركز البحث العلمي وإحياء التراث، جامعة أم القرى).

٢٧- **الفائق في غريب الحديث**، للزمخشري، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م).

٢٨- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ابن حجر، تعليق الشيخ / ابن باز، ترقيم / محمد فؤاد

عبدالباقي، إخراج/ محب الدين الخطيب(مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ط بدون).

٢٩- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المناوي (دار الحديث، القاهرة).

٣٠- **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، (مؤسسة الرسالة، بيروت).

٣١- **الكلم الطيب**، ابن تيمية، تحقيق : الألباني(المكتب الإسلامي – بيروت)

٣٢- **لسان العرب**، ابن منظور، (دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م).

٣٣- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د/ أحمد الحوفي، ود/بدوي طبانة، (دار الرفاعي بالرياض، ط٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م).

٣٤- **مجمع الزوائد ومنبع الزوائد**، للهيثمي (دار الكتاب العربي بيروت، ط بدون)

٣٥- **المستدرك على الصحيحين**، الحاكم، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ،(دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١ ، ١٤١١ – ١٩٩٠)

٣٦- **المستدرك**، للحاكم ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا(دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م).

٣٧- **المسند** ، للإمام أحمد،(مؤسسة قرطبة، مصر، ط بدون) ح(٤٥٢٤)، ٧/٢.

٣٨- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، للفيومي، (المطبعة الأميرية بالقاهرة، ط بدون، ١٩٢٦م)

٣٩- **معالم السنن**، للخطابي، خدمه : عبدالسلام عبدالشافي محمد(دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون، ١٤١٦هـ، ١٩٦٦م) .

٤٠- **المعجم الكبير**، الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي، (مكتبة العلوم والحكم – الموصل، ط٣ ، ١٤٠٤ – ١٩٨٣)،

٤١- **المعجم الكبير**، الطبراني، تحقيق: حمدي عبدالحميد السلفي (مكتبة الزهراء الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م)،

٤٢- **المغرب في ترتيب المعرب**، للمطرزي، تحقيق : محمد فاخوري، وعبدالحميد مختار(مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط١، ١٩٧٩م)

٤٣- **مفردات ألفاظ القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي (دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، ط١ ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م).

٤٤- **الموطأ** ، رواية محمد بن الحسن

٤٥- **النهاية في غريب الحديث** ، لابن الأثير ، تحقيق : طاهر الزاوي ، ومحمود الطناحي ، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م).

* * *